

## صدى النكبات الكبرى في النثر الأندلسي زمن دول الطوائف

سالم الهدوسي

قسم اللغة العربية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن

تاريخ قبوله للنشر: ١٩٩٤/٩/١٩

تاريخ تقديم البحث: ١٩٩٤/٦/٢٨

### ABSTRACT

It is well known, that the spanish christians and thier European allies committed horrible actions against Muslims during the reclamation war; houses and villages were destroyed, massacres were committed, Muslims were forced to convert to christianity, mosques were converted into churches. christians took advantage of the weakness of the princelings, thus, they were able to drive Muslims out of their cities.

The most severe disaster, committed by the christians, happened during the fall of Barbastro (456 A.H.) and Toledo (478 A.H).

Those terrible events were deeply reflected in the works of Andalusian Muslim prose writers. These works echoed the sorrows and pains of the Muslims and appealed for help to save them and their religion and culture

### ملخص

يتناول هذا البحث مدى تفاعل الكتاب مع النكبات، التي عاني منها المسلمون زمن دول الطوائف، حيث طالت النكبات الإنسان، من خلال المذابح والسبي والتهجير، والأرض، من خلال التدمير والاحتلال، وطالت الحضارة من خلال تحويل المقدسات إلى كنائس، وإجبار المسلمين على التنصر، وأخطر النكبات التي ابتلى بها المسلمون في هذه الفترة نكبة سقوط بَرَشَنَر سنة ٤٥٦هـ، ونكبة سقوط طُلَيْطَلَة سنة ٤٧٨هـ، إذ استولى عليهما الاسبان وحلفاؤهم من الفرنج، في حرب الاسترداد الصليبية، منتهزين فرصة ضعف المسلمين وتفرقهم، وكان لنكبة طليطلة أثر بالغ في تغيير مجرى الأحداث هناك، إذ عبر المرابطون إلى الأندلس، وتمكنوا من إيقاف المد الصليبي على تلك الديار زمن حكمهم. ونجحوا في إطالة أمد الوجود الاسلامي في الأندلس، ولو إلى حين.

## المقدمة :

يعالج هذا البحث صدى النكبات الكبرى في النثر الأندلسي، زمن ملوك الطوائف، الذين تقاسموا حكم الأندلس، بعد إلغاء الخلافة فيها سنة ٤٢٢هـ، وحتى عبور المرابطين سنة ٤٧٩هـ وقيامهم بخلعهم بعد وقعة الزلاقة، ليتمكنوا من إنقاذ الأندلس من الضياع، بسبب ضعف ملوك الطوائف وتخاذلهم عن الجهاد.

واتسمت فترة حكم ملوك الطوائف بالصراعات والفتن فيما بينهم، وطمع كل واحد منهم في إمارة جاره المسلم، واستعانتهم بملوك النصارى وجيوشهم على المسلمين، ومحالفتهم ضدهم، ويدلوا لهم مقابل ذلك أوطان المسلمين وأمولهم، وأباحوا لهم دماءهم وأعراضهم، مما جرأهم على المسلمين، كما شجع تخاذل ملوك الطوائف وضعفهم وخضوعهم على تنامي أطماع ملوك النصارى في خيرات ديار المسلمين، وأحيا في نفوسهم رغبة دفينية في استرداد تلك الديار، وإعادتها إلى حظيرة النصرانية، فتنادوا لقتال المسلمين وطردهم، فحشدوا جيوشا جرارة من الإمارات الإسبانية، وفرنسا، وجنوب إيطاليا وغيرها من نواحي أوروبا، بتحريض الكنيسة ومباركتها، التي أعلنت الحرب الصليبية على المسلمين في المشرق والمغرب.

وفي غفلة من ملوك الطوائف، وانشغالهم في صراعاتهم، أخذت جيوش النصارى بالزحف على ثغور المسلمين ومدنهم، ينفردون بها، ويكتسحونها الواحدة بعد الأخرى، يوقعون بأهلها أشنع المحن، في حرب حاقدة ضروس، استهدفت إبادة الوجود الاسلامي هناك؛ مادياً ومعنوياً، وقد تمثلت مظاهر هذه الإبادة الحضارية في تدمير المدن الاسلامية، التي لم يستطيعوا الاحتفاظ بها، وعفوا على معاملها بالهدم والإحراق، كما قاموا بتصفية الوجود الاسلامي في المعقل الأخرى التي استولوا عليها، من خلال المذابح الجماعية، وسبي النساء والأطفال، واسترقاقهم، وإجبار من بقي منهم على التنصر، وتهجير الآخرين عن ديارهم، ونهب ممتلكاتهم وأموالهم، وتوطين النصارى في ديارهم، وتحويل مساجدهم إلى كنائس.

لقد ابتلي المسلمون بسلسلة أليمة من المحن والنكبات، زمن ملوك الطوائف وما تلاهم، في حرب صليبية، شنها النصارى على المسلمين، وهم في ظروف غير عادية من الضعف والفرقة والصراعات فيما بينهم، حيث نجحت جيوش النصارى في بداية الصراع، في الاستيلاء على عدد من حصون المسلمين، ومدنهم المنيعه في ثغور المسلمين الشرقية، والشمالية الشرقية، حيث انشغل ملوك الطوائف بصراعاتهم عن نجدة المسلمين هناك. وأسلموهم لمصيرهم المؤلم مع الأعداء، مما شجع النصارى على التطلع إلى الاستيلاء على الحواضر الاسلامية الكبرى، فكانت نكبة سقوط بريشتر بيد النورمان وحلفائهم سنة ٤٥٦هـ - أولى النكبات الكبرى التي أصابت المسلمين زمن ملوك الطوائف، إذ تخاذل أمراؤها من آل هود، وباقى ملوك الطوائف عن نجدة أهلها. ثم تلتها نكبة سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ على يد القشتاليين، فكانت أشد

وقعاً في نفوس المسلمين من سابقتها، إذ تخلى أمراؤها من آل ذي النون عن نجدة أهلها، وتحالف بنو عبّاد ملوك إشبيلية مع الفونسو السادس ملك القشتاليين، على اقتسام ممتلكات آل ذي النون حول طليطلة، بدلا من نجدة أهلها.

وتعاضم كلب النصارى بعد ذلك على معاقل المسلمين، وتعاقبت غاراتهم عليها، فجاهدهم المسلمون طوال خمسة قرون للدفاع عن بقائهم ومصيرهم، وشكل هذا الصراع احتضاراً بطيئاً ومؤلماً للوجود الاسلامي هناك، كلما بدت لها بارقة أمل في النجاة والخلاص، تلاشت سريعاً، بسبب تدهور أوضاعهم السياسية، وازدادت خطورة هذا الصراع مع مرور الأيام، حتى اذن بانهايار وجودهم في نهاية المطاف، فتجح الصليبيون في إبادة مقومات الوجود الاسلامي هناك.

وسوف أحاول معالجة هذا الموضوع الخطير، من خلال استقراء النصوص المتعلقة بقضاياها، ومقارنتها وتحليلها، مراعيّاً التسلسل التاريخي في تطور الأحداث، وأصدائها في أدب الكتاب الأندلسيين، زمن ملوك الطوائف فحسب، وسوف اقتصر على معالجة القضايا المتعلقة بتفاعل الكتاب مع النكبات الكبرى والخطيرة في هذه الفترة، والمتمثلة بسقوط الحواضر الكبيرة الأولى بيد النصارى، وهي بَرِيَشْتَر وطلَيْطَلَة، وسأهمّد لذلك بمعالجة بدايات تفاعل الكتاب مع الأحداث الأولى الخطيرة، وما حل من خلالها بالمسلمين من المأسى، ومحاولة هؤلاء الكتاب دق ناقوس الخطر، للتحذير من تفاقمها، وتعاضم خطرهما، كي لا تؤدي إلى ما أدت إليه من المأسى والنكبات والمحن فيما بعد، حيث مثّلت بداية حالة التراجع والجزر في الوجود الحضاري الاسلامي في الأندلس، حقيقة الواقع التاريخية المؤلّة في هذه الفترة هناك.

## بداية المأساة:

تنبه الكتاب إلى ما يدور حولهم من الأحداث الجسام الخطيرة منذ بداياتها، وأحسوا بخطورة بداية المد الصليبي في الأندلس، فتهبوا الملوك والرعية عليها، وأخذوا يصورون ما بدأ يحل بديار الاسلام من الدمار والنهب، وبالمسلمين من الإبادة والسبي والتهجير، ووصفوا ذلك بأسلوب يفطر النفس، ويشحنها باللوعة والألم، وأجادوا في رسم تلك الصورة الحزينة المفجعة، التي خلفتها النكبات الأولى التي أصابت المسلمين على يد النصارى الاسبان وحلفائهم، ثم راحوا يتعالون على جراهم وأحزانهم، وأخذوا يستنفرون المسلمين كافة لإنقاذ الاسلام مما يتهدده، وينبهون على الواقع الأليم الذي بلغته حال المسلمين، في ضعفهم وفرقتهم وضياعهم أمام أعدائهم، ليكون ذلك باعثاً على اليقظة، وأخذ العبرة، والنهوض لإنقاذ ما يمكن انقاذه، والحفاظ على ما بقي، محذرين من مغبة التخاذل، وما سيجره من المخاطر على وجود

المسلمين كافة هناك<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك ما كتبه أبو عبدالرحمن محمد بن طاهر❖، في رسالة بعث بها إلى المعتصم بن صمادح❖، صاحب المريّة❖، يصف فيها تكتل جيوش النصارى، وغاراتهم على ثغور المسلمين، في قلعة أيوب❖، وسرقسطة❖، وبوشقة❖ وغيرها، فيقول "وذلك أن فرّذلند - وقمه الله - نزل على قلعة أيوب محاصراً لمن فيها، ومُغيراً على نواحيها، بجموع يضيق عنها الفضاء، وتتساقط لملاحظتها الأعضاء، وإنه قد بنى على قصد جهاتنا، ووطء جنباتنا... وغرسيّة - دمره الله - بسرقسطة كذلك، ورُذْمير، - أهلكه الله - بوشقة وما ولاها ينكي بما ييكي"<sup>(٢)</sup>.

ثم يصف حال المسلمين وقد استباح الأعداء ديارهم، وعاثوا فيها خراباً، ولا حامي لهم إلا الله، حيث انفردت بهم جيوش النصارى قتلاً وسبياً، وبممتلكاتهم نهباً وتدميراً، فيقول "والمسلمون بينهم سوام ترتع، وأموالهم نهب توزع، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدع، فأطل الفكرة في هذا الخرم الداخل، والبلاء الشامل، وأسبل العبرة، وأطل العبرة، والله المرجو في أمته، وكشف غمته بمنه"<sup>(٣)</sup>.

ويصور ما أصاب الاسلام والمسلمين من الذل والهوان، والدمار والضياع، وملوك الطوائف في شغل عن ذلك في صراعاتهم. ويبدو في تعابيره إحساس عميق بفداحة المأساة، ويصل به الشعور بالضياع إلى حد اليأس، غير أنه يحاول التعالي على هذا الإحساس، ويعد ما أصاب المسلمين قدراً وامتحاناً من الله<sup>(٤)</sup>، ويرفع عقيرته بصرخة استغاثة يلفها الحزن والغضب، والثورة على واقع المسلمين المريع، الذي توالى فيه المحن والنكبات المؤذنة بتراجع الوجود الاسلامي، وتهديد بقائهم في تلك الديار، إن لم يسارعوا للجهاد، وصد هذ العدو، فيقول "قليندب الاسلام نادب، وليبك عليه شاهد وغائب، فقد طفئ مصباحه، ووطئ ساحه، (وقص جناحه)، وهيض عضده، وغيض ثمده، إلى الله نفزع، ولديه نضرع، في طارق الخطب ومنتابه، فلا حول ولا قوة إلا به، فهو كاشف الكروب، وناصر المحروب"<sup>(٥)</sup>.

ويلحظ أن معظم الكتاب في هذه المرحلة من بداية المأساة قد حاولوا تجاوز أسلوب اليأس وروح الهزيمة، والانتقال إلى روح المقاومة، ورفض الخنوع لواقع المأساة، والاستيقاظ سريعاً من الاحساس بالذهول، الذي يرافق بداية النكبات، وتجميع قوى النفس، للتسامي فوق الحزن والألم، فلا نجد فيما وصلنا من الكتابات أحداً بين الكتاب استسلم لاحاسيس اليأس والانزواء، أو الدعوة للرحيل والاستسلام، صنيع كثير من الشعراء<sup>(٦)</sup>، بل نجدهم يحولون الحزن إلى ثورة غضب جامحة، وصرخة رفض مدوية، تدعو لنبد الخنوع والتخاذل، وتستنهض الهمم للنفير والجهاد، رغم ما نلاحظ في كتاباتهم من التفجع على مصاب المسلمين في أرواحهم وديارهم وحضارتهم<sup>(٧)</sup>، فهذا إحساس طبيعي بأحداث ليست عادية، فهو بكاء يتفجر من نفوس قوية أبية، وعزمات شامخة، فتراهم يندبون معالم مدنهم وحضارتهم، ودماء

إخوانهم بشموخ وكبرياء، وكانوا يأملون بأن طاقات أمتهم وإخوانهم خارج الأندلس، ستحول هذه الهزائم إلى انتصارات، فتطلعوا إلى العدو المغربي، يستغيثون المرابطين<sup>(٨)</sup>، ومن ذلك ما كتبه أبو عبدالله محمد بن أيمن ❖ عن المتوكل بن الأفطس ❖، إلي يوسف بن تاشفين ❖، يستغيث به على النصارى، ولينقذ الأندلس من أطماعهم، بعد أن كلبوا على ديار المسلمين، واستولوا على عدد من حصونهم المنيعه، مثل قُورِيَّة ❖ وسُرِّيَّة ❖، وذلك لتخاذل أهل الأندلس وملوكهم عن حمايتها وانقاذ أهلها، فيقول "ومن قبل هذا، ما كنت خاطبتك... بالنازلة في مدينة قُورِيَّة - أعادها الله إلى الاسلام - وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء، ولن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال ذلك التخاذل والتدابير يتزايد، حتى تخلطت القضية، وتضاعفت البلية، وتحصلت بيد العدو مدينة سُرِّيَّة"، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصن والامتاع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة، تدركها من جميع نواحيها... وما هو إلا نفس خافق، ورمق زاهق، استولى عليه عدو مشترك، وطاغية منافق، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا، وتبادروا ركبانا ورجالا، وتتفروا نحوها خفافا وثقالا..."<sup>(٩)</sup>.

فهم ينطلقون من البكاء الصاخب، وذرف الدموع، ولكنهم ينتهون الى الثورة والغضب والدعوة الى استنهاض الهمم، ورفع الهزيمة، وليس الى اليأس والقنوط<sup>(١٠)</sup>.

### صدى نكبة برِيشتر:

تقع مدينة برِيشتر ❖ على نهر مارْدَة فرع من فروع نهر إبرة، في شمال الأندلس، وكانت من مدن الثغور الحصينة بين مدينتي لارْدَة ووَشْقَة، شمال شرقي سَرْقِسْطَة<sup>(١١)</sup>.

وعدها الحميري "من أمهات مدن الثغر الفائقة في الحصانة والامتاع"<sup>(١٢)</sup>. ووصفها ابن حيان بأنها "قصبه بلد برطانية، الواسط لما بين بلدتي لارْدَة وسَرْقِسْطَة، ركني الثغور العلا، وهي الأم البرْزَة، التَّليْد... راكبة لنهر مارْدَة، سورا مضروبا لأهل الثغور القَصَى، والدفع في وجوه العدى"<sup>(١٣)</sup>.

وكان سقوط هذه المدينة الحصينة بيد النورمانيين، وحلفائهم من الفرنسيين والأوروبيين، من أولى الكوارث العظيمة التي نكب بها المسلمون في الأندلس، ففي مطلع سنة ٤٥٦ هـ قام البابا إسكندر الثاني بالدعوة إلى إعداد أول حملة صليبية على مسلمي الأندلس ومباركتها، فاحتشد الفرسان والمقاتلون في ولاية نورمانديا، شمال غربي فرنسا، وكان معظمهم من النورمانيين أنفسهم، وانضاف لهم جموع من الفرسان الفرنسيين، وكان معظم أفراد هذه الحملة من المغامرين، الذين يبحثون عن الغنائم والسبي، في أراضي المسلمين أينما كانت، والنكاية بهم بدافع الحقد الصليبي الذي غرسه الكنيسة في نفوسهم، وتولى قيادة هذه الحملة الفارس الفرنسي جيوم دي مونري، أحد قادة الجيوش الرومانية والبابوية، وخادم

الكرسي الرسولي<sup>(١٤)</sup>. وقد رصد كتاب المسلمين مصدر هذه الحملة وتحركاتها فيذكر مؤلف كتاب الحلل الموشية "أن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أي فرنسا) إلى الأندلس، في جموع كبيرة ليس لها حد، ولا يُحصي لها عددا إلا الله، وانتشروا على ثغور سرقسطة"<sup>(١٥)</sup> وأطلق الكتاب على هؤلاء الغزاة اسم الأردمانيين أو الروذمانيين أو الاردمليس<sup>(١٦)</sup>، وبالغوا في تقدير عددهم، فقال الحميري "وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة، أهل غاليش (فرنسا) والروذمانون (النورمانيون)، وكان عليهم رئيس يسمى البيطش (جيوم دي مونري) وكان في عسكره نحو أربعين ألف فارس"<sup>(١٧)</sup>.

وتوجهت هذه الحملة إلى أراضي مملكة سرقسطة، وحاصرت مدينة وشقة الحصينة، فصمدت لهم، ثم غادروها شرقا إلى مدينة بريشتر، ولم تكن لتقل عن وشقة أهمية أو حصانة، فضربوا حولها حصارا شديداً، دام أربعين يوماً، ذاق أهلها الأهوال من الجوع والعطش، والعناء الشديد، والخوف، وكانت بريشتر من أملاك يوسف بن هود❖، فلم يستطع إنجادها، بسبب صراعه مع أخيه المقتدر، وخذلهم المقتدر أحمد بن هود❖، لأنها من ممتلكات خصمه، وليس لأهلها ميل إليه، فترك الاثنان المدينة لمصيرها المأساوي، ووكلا أهلها إلى نفوسهم، وقعدا عن نجدتهم<sup>(١٨)</sup>، وتخاذل الأمراء الآخرون عن نجدها، فصمدوا للحصار، داخل مدينتهم الحصينة، إلا أن "الأردمانيين نزلوا عليها وجدوا في قتالها وحصارها جدا عظيما، فكان أهلها يقاتلونهم خارج مدينتهم"<sup>(١٩)</sup>.

واشتد الضيق بأهل بريشتر، وعزت الأقوات "ووقع بين أهلها تنازع على القوات لقلته، ولما علم العدو بذلك جد في القتال، فدخل الكفرة المدينة البرّانية.. فبُهِت الناس، وتحصنوا بمدينتهم الداخلة، ودارت بينهم حرب شديدة، قتل فيها من النصارى خمسمائة"<sup>(٢٠)</sup>. وقد عول أهل بَرِيَشْتَر على الدفاع عن أنفسهم حتى آخر رمق، غير أن حدثاً عجلاً بوقوع الكارثة إذ "كان الماء يأتيها (بريشتر) في سَرَب تحت الأرض من النهر، حتى يدخل إليها، فخرج رجل من القصبة إلى الروم، ودلهم عليه، فُساروا إليه وهدموه، وحالوا بينه وبين الاتصال بقم السَرَب، ولم يكن لهم صبر على العطش"، "فعدمو الماء وآيسوا من الحياة"<sup>(٢١)</sup>.

ويصف ابن حيان❖ مبلغ ما أصابهم من العطش وسوء الحال "أنه كانت المرأة تطلع من فوق سور المدينة، فتتادي من يدنو إليها من الكفرة عن جرعة ماء، لنفسها أو طفلها، فيقول لها: هاتي ما معلق، ألقي إلي ما يرضيني أسقيك، فتلقي إليه ما عندها من كسوة أو حلية أو مال، وتدلي نحوه ما حضرها، من قرية أو أنية في رشاء، فتغيث به نفسها أو طفلها، وعرف الطاغية ذلك، فتهى رجاله عنه"<sup>(٢٢)</sup>. فاجتمع عليهم الجوع والعطش، وبدا لهم شبح الموت جاثماً فعرضوا على النورمان الاستسلام بالأمان في أنفسهم وأولادهم "فأعطاهم أعداء الله ذلك، فلما خرجوا نكثوا بهم وقتلوا جميعاً، ولم يطلقوا منهم غير قائدهم ابن الطويل،

وقاضيههم ابن عيسى في نفر من الوجوه قليل عددهم" (٢٣).

فدخل النورمان المدينة كالوحوش المفترسة، وامعنوا في أهلها قتلا وسبياً، ونهبوا المدينة بكاملها وسبوا نساءها وأطفالها، ويسهب الكتاب المسلمون في وصف ما ارتكبه النورمان من الفظائع والمجازر التي تقشعر لها الأبدان، وقدرُوا عدد القتلى والأسرى بأربعين ألفاً، أو خمسين ألفاً، وبلغ عند بعضهم مئة ألف (٢٤). وخير من وصف مأساة بريشت المؤرخ الأديب أبو مروان ابن حيان (ت ٤٦٩هـ) في كتابه المقتبس، إذ كان يعيش وقت وقوع هذه المأساة في قرطبة، وقد دون تفاصيل هذه النكبة بأسهاب شديد، وبعبارات محزنة، تفسر القلوب وتؤلم النفوس، غير أن الجزء الذي يتضمن وصف نكبة بَرِيشتَر من كتاب المقتبس لم يصلنا، ولحسن الحظ، فقد نقلت معظم المصادر التي تلتها هذه التفصيلات عنه.

ولما خرجت جموع المسلمين إلى النصارى في ظل الأمان المقطوع، غدر قائد النورمان بهم، فأمر بارتكاب مجزرة بشعة بحق المسلمين، ويصور ابن حيان ذلك بقوله "ولما رأى الطاغية كثرتهم وانتشارهم، هاله ذلك، وخاف أن تدركهم حمية في استنقاذ أنفسهم، فأمر أصحابه ببذل السيف فيهم، ليخفف من أعدادهم، فقتل منهم يومئذ خلق عظيم، تحدث أنهم نيفوا على ستة آلاف قتيل" (٢٥).

وقد تفنن هؤلاء المتوحشون في نكاية المسلمين، والبطش بهم، فبعد أن تعبوا من مجزرتهم، أمروا من بقي من المسلمين على قيد الحياة "بالخروج عن المدينة بالأهل والذرية، فابتدروا الخروج عنها مزدحمين على أبوابها، فمات منهم في ازدحامهم ذلك، من الشيوخ والعجائز والأطفال جماعة، وجعل كثير منهم يتدلون بالحبال من ذرى السور فراراً... وبداراً إلى شرب الماء... وهلك من نساء بريشتَر جملة، يكثر عدها، عند إفلاتهم من عطش القسبة لتطارحهم على الماء، يكرعن فيه بغير مهل، فكبهن للأذقان موتى" (٢٦).

على أن ذلك لم يكن أشنع ما نزل بالمسلمين، بل كانت تنتظرهم فظائع أخرى، يندى لها جبين البشر، لخستها وهمجيتها، إذ أمروا المسلمين بعد ذلك بالعودة إلى دورهم، لكي يقتسموا المدينة بدورها وأهلها من الرجال والنساء والأطفال وما يمتلكون، بأسلوب وحشي لا يمت للإنسانية بصلة "وكان الخطب في هذه النازلة أعظم من أن يوصف أو يتقصى" (٢٧).

ويصف ابن حيان ذلك بقوله "ولما برز جميع من بقي من أهل المدينة عنها إلى فناء بابها، بعد أن خفف منهم القتل، وهلك في الزحمة، ظلوا قياماً ذاهلين منتظرين لنزول القضاء بهم، نودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار منهم إلى داره ووطنه بأهله وولده، وأزعجوا لذلك، فنالهم من الإزدحام قريباً مما نالهم في خروجهم عنها" (٢٨).

وبعد لحظات العذاب المظني هذه، جاء الاستعباد ومأساة الإنسان، إذ قاموا بابتذال إنسانية المسلمين، وإلغاء وجودهم الإنساني، وعاملوهم كما لو كانوا حيوانات وقعت في

صيدهم، فغنموهم وما يمتلكون "فلما استقروا فيها مع عيالهم وذرياتهم، اقتسمهم المشركون بأمر سلطانهم، قسمة قروها بينهم، فكل من صارت في حصته دار حازها، وحاز ما فيها من أهل وولد ومال، يحكم كل علاج منهم في من سلط عليه من أرباب الدور، بحسب ما يبتليه الله به منهم، يأخذ كل ما أظهره عليه من نشب، ويقرره على ما أخفاه عنه، يعذبه أنواعا من العذاب، حتى يبلغ نفسه عذرها منه، فريما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح، وربما أنظره أجله إلى أسوأ من ذلك" (٢٩).

ثم يصف ابن حيان أبشع ما فعلوه من المحن والفظائع بحق المسلمين واستباحة أعراضهم، بقصد المثلة والنكاية، فاغتصبوا نساءهم على مرأى منهم، بطريقة حيوانية بربرية، إمعانا في تعذيبهم، وقتلهم روحيا ومعنويا، وتحدي مشاعرهم، وهتك أبسط القيم الإنسانية التي تراعي كرامة البشر "فإن عداة الله كانوا يومئذ يتولعون بهتك حرم أسراهم، وبناتهم بحضرتهم، وعلى أعينهم، إبلاغا في تعذيب قلوبهم، يغشون الثيب ويفتضون البكر، وزوج تلك وأبو هذه موثق بقيد إيساره، ناظر إلى سخنة عينه، فعينه تدمع، ونفسه تقطع، ومن لم يرض ذلك منهم أن يفعل في خادم أو ماهرة أو وخش❖، أعطاهن خوله وغلماهن، يعبثن بهن عبته، فبلغ الكفرة فيهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة" (٣٠).

ثم سُببت المدينة بكاملها ونُهبت، بحيث دمرت حضارة الإنسان المسلم في نفسه، وفي أرضه، وفي مقدساته، وبمعنى آخر صار هؤلاء الصليبيون إلى إفناء وجوده على وجه الواقع والحقيقة، ويشي ذلك بمدى الحقد الديني الذي غرسته الكنيسة في نفوس هؤلاء المتوحشين على المسلمين، ويصور ابن حيان ما حصلوا عليه من المقادير الهائلة من الغنائم، والاعداد الطائلة من سبي نساء المسلمين، وأطفالهم، فيقول "فحصلوا من غنائم بريشتر على ما لا يقدر حصره كثرة، زعموا أنه صار لأكبر رؤسائهم قائد خيل رومة، في حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً كلهن، ومن أوقار الأمتعة من الحلي والكسوة والوظء خمسمائة حمل، وتحدث أيضا أنه أصيب في هذا القتل والسبي مئة ألف نسمة" (٣١).

ولكثرة ما سبي من النساء والأطفال، فقد تهاداهم الملوك والأمراء في بلاطات فرنسا وأوروبا، كتذكارات لانتصارهم على المسلمين، فيروى أنه لما قفل قائد الحملة إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار، والثيبات ذوات الجمال، ومن صبيانهم الأيفاع، والحزاور❖ الحسان، ألوفا عدة، حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه" (٣٢).

ويذكر الحميري "أنهم اختاروا من أبكار جواري المسلمين، وأهل الحسن منهن خمسة آلاف جارية، فأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية" (٣٣) وعادوا إلى بلادهم، وفي ركبهم ألوف من سبي المسلمين، نساء، ورجالا، وأطفالا، ومقادير هائلة من الأموال والغنائم المختلفة.

ولم تكن هذه الحملة الصليبية للنهب والسلب وإبادة المسلمين وحسب، بل لاحتلال ديارهم،



وإزالة كل وجود إنساني أو حضاري يتعلق بهم، فقاموا بعدما عفاوا على المدينة وفتكوا بأهلها، بمحاولة الاحتفاظ بها، واستيطانها، "فخلفوا فيها من جلة رجالهم، وأهل البأس منهم، من وثقوا بضبطه لها، ومنعه إياها، واستوطنوها بالأهل والولد، وجعلوها ثغرا من ثغورهم" (٣٤) فكان مما تركه قائدهم فيها "من رابطة خيله الفا وخمسائة، ومن الرجال ألفين" (٣٥).

ويذكر ابن حيان حادثة، كَاتَبَ بها بعض أهل الثغور، وهي كما يصفها "نادرة منها يكتفى باعتبارها عما سواها، وتمثل لذوي النهى صورة ا لبلوى التي تتوقع شرواها" (٣٦) وهي فعلا حادثة مذهلة، تشي بمدى الحقد الحضاري والعقيدي الدفين، الذي انضوت عليه صدور هؤلاء الغزاة المتوحشين ضد المسلمين، وتعطشهم للبطش بهم، والانتقام منهم، لأنهم حاولوا إخراجهم من ظلمات القرون الوسطى وجهلها، إلى نور الاسلام وحضارته، واحترامه لعقل الإنسان وإنسانيته، فيروى أن أحد من نجوا من وجهاء بريشتر، أرسل تاجرا يهودياً ليفتدي ابنته من أسرهما النورماني في بريشتر، فبذل له فيها الغالي والنفيس من مال، وجواهر، وخز، فأبى ذلك، وأجاب بقوله "لقد كثر هذا عندي، حتى ما ألد به، ثم حلف بإلهه وآبائه: لو لم يكن عندي شيء من هذا، ثم بذل لي بأجمعه في ثمن مُدْنِيَّتِهِ ❖ إليك، ما سحت نفسي بها فيه، فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه، اصطفيتها له مع جمالها لولادتي، حسبما كان قومها يصنعونه بنسائنا تحت أيام دولتهم، وقد رد لنا الكرة عليهم، فصرنا الآن فيما تراه... فهذا فيه مقنع عن تدبره، وتذكرة عن تذكره" (٣٧).

لقد كانت نكبة بَرِيَشْتَر فادحة لما اقترنت به من الممارسات المروعة، التي استهدفت تصفية الوجود الاسلامي، المتمثل بالمدينة، والإنسان، والحضارة، وشهدت على مدى وحشية الغزاة النورمان. وقد وصلت أخبار هذه المحنة المروعة إلى قرطبة في شهر رمضان، سنة ٤٥٦هـ، فاهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها، وسادها الاشمئزاز والتقزز لتلك الفضائع الشنيعة، التي لم يسمعوا بمثلا، غير أن أهل الأندلس، وملوكها لم يقوموا بتحريك ساكن وقتها، لانقاذ بريشتر، على الرغم من استغاثتهم بهم أثناء الحصار، ومعرفتهم بمصيرهم بعد المأساة، ويصور ابن حيان أثر وقع أنباء الكارثة على أهل قرطبة، بقوله "طرق الناعي بها قرطبتنا فجأة، صدر شهر رمضان المبارك، من العام، فصك الأسماع، وأطار الأفئدة، وزلزل الأرض الأندلسية قاطبة، وصير لكل شغلا، تسكع الناس في التحدث به، والتسأل عنه، ولتصور لحلول مثله أياماً" (٣٨) وعلى الرغم من هذه المشاعر الآنية في التعاطف مع أهل بريشتر، إلا أنهم "لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل، والاعتزاز بالأمل، والاسناد إلى أمراء الفرقة الهمل، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويلبسون عليهم وضوح الدليل" (٣٩).

ثم يحمل أمراء الأندلس وفقهاءها مسؤولية ما حل ببريشتر، وخذلان أهلها، وما سيحل

بأهل الأندلس بعد ذلك، لأن في هذين الصنفين من الناس صلاح دنياهم ودينهم إذا صلحا، غير أن أمراء الأندلس انحرفوا عن جادة الصواب، بتناحرهم وفرقتهم، وانغماسهم في لذاتهم، ولهوهم عن تدبر أمور المسلمين وحماية ديارهم، ومالأهم الفقهاء طمعا في عطاياهم، ومشاركتهم في لهوهم وعبتهم، أو جبنا وخوفا من سلطانهم وسطوتهم، فقال: "لم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم.. الأمراء والفقهاء... بصلاحتهم يصلحون، وبفسادهم يردون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهما لدينا هذين... فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق، زيادا عن الجماعة، وحوشاً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد اصبحوا بين أكل من حلوائهم، خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، أخذ بالثقة في صدقهم، وأولئك هم الأقلون فيهم" (٤٠).

ويجب ابن حيان لرد فعل هؤلاء الأمراء على تلك الأحداث الجسيمة، إذ تبادوا في تخاذلهم وجبنهم ولم يحركوا ساكناً وقتها لإغاثة المدينة المنكوبة، وجل ما فعلوه أن قبع كل واحد منهم في معقله، يعلي أسواره، ويحيطه بالخنادق، ثم أخذوا ينظرون من بعيد إلى مصير أهل بريشتر الأليم، ويقول: "ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء، إن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الغراء في بريشتر إلا الفزع إلى حضر الخنادق، وتعليه الأسوار، وشد الأركان، وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوء السوء، من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليهم، أمور قبيحات الصور، مؤذونات الصدور بأعجاز تحل الغير:

أمرور لو تدبرها حكيم إذن لنهى وهيباً ما استطاعا (٤١)

ثم ينحي باللائمة على فقهاء الأندلس، وصمتهم الفاضح عن هذه الأحداث، لم ينطلق لهم صوت في مسجد، يذكر حال أهل بريشتر أو يدعو لنصرتهم، وكأنهم ليسوا من إخوانهم، أو كأن ما أصابهم بعيد عن أهل الأندلس الآخرين، ويطول عجبه واستنكاره لفعلتهم، ويقول "ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم، ما إن يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا، ومحفل من محافلنا مذكر بهم، أو داع لهم، فضلا عن نافر إليهم أو مواس لهم، حتى كأنهم ليسوا منا، أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء، بخلنا بالغناء، عجائب مغربة فاقت التقدير، وعرضت للتغيير، فله عاقبة الأمور، وإليه المصير" (٤٢).

وتصبح هذه المحنة مادة خصبة لتأملات عميقة في نفس ابن حيان، يحاول النفاذ من خلالها إلى التنبؤ الصائب، لما وراء هذه الأحداث، وتفيض نفسه بمشاعرا لتوجع والتحسر على أحوال مسلمي الأندلس في زمانه، ولا تخلو هذه التأملات من نظرات نقدية عميقة صائبة، فيقول: "قد أفشيننا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة، مؤذنة بوشك القلعة، طالما حذر عليها أسلافنا... ولأشد مما أفشيننا عند أولي الألباب، ما أخفيناه مما دهانا من داء

التقاطع، وقد أخذنا بالتواصل والالفة، وأصبحنا من استشعار ذلك، والتمادي عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة... فمثل دهرنا هذا فرس بهيم الشيبة، ما إن يباهي بقرحة، فضلا عن شذوخ غرة، قد غربل أهليه أشد غريلة ففسق أخلاقهم... فليسوا في سبيل الرشد باتقياء، ولا على معاني الغي بأقوياء. شاء من الناس هامل يعللون نفوسهم بالباطل، من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم، اغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم... وذوولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سد ثغره، حتى يظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عراض ديارهم، ويستقرىء بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفاً منهم، ويبيد أمة" (٤٣).

وصبَّ الكتاب جام غضبهم على أحمد المقتدر بن هود، واستكروا فعلته الشنعاء، في وكله أهل بريشتر لأنفسهم، وإسلامهم إلى أعدائهم، بتلك الصورة البشعة، رغم قربه منهم، وقدرته على إغاثتهم، فتخاذل عنهم بسبب أطماع شخصية، لانحرافهم إلى خصمه في الملك، أخيه يوسف بن هود، فخذلهم لينتقم منهم على تلك الصورة الشنيعة، ورغم أنه نجح في استردادها بمساعدة المعتضد بن عباد، والمتطوعين المسلمين من سائر أنحاء الأندلس، إلا أن ذلك لم يمح عنه عار التفريط فيها أولاً، ووصف ابن حيان محاولته محو العار عنه بقوله: "فلما كان عقب جمادى الأولى من سنة سبع وخمسين، شاع الخبر بقرطبة بارتجاع المسلمين لبريشتر، وذلك أن أحمد بن هود الملقب بالمقتدر، المفرط فيها، والمتهم على أهلها، لانحرافهم إلى أخيه، صمد لها مع مدد عباد حليفه، وسعى لإصمات سوء القالة عنه، وقد كتب الله عليه منها، ما لا يمحوه إلا عفوه" (٤٤). فلم يسع المقتدر بن هود إلى استرداد المدينة حمية للإسلام ولا ثأراً للمسلمين، وإنما لإسكات سوء القالة عنه وعن حليفه ابن عباد.

وإثر انتشار الخبر بمأساة أهل بريشتر، دوت صرخة استغاثة هائلة، هزت مشاعر أهل الأندلس، وأمرائهم، أطلقها الكاتب أبو محمد عبدالله بن أبي عمر بن عبد البر النمري، في منشور طويل، كتبه على لسان أهل بريشتر، انتشر في مختلف أنحاء الأندلس، يصف ما حل بهم من النكبات الفظيعة، والأفعال البشعة، التي ياباها الحس الإنساني، ويتقزز منها، ويستثير هم المسلمين، ويستنهضهم لنجدتهم، والإنقاذ لهم من المعتدين المتوحشين، ويدعو إلى انقاذهم من الاسترقاق والعبودية، وتحريرهم من مصابهم، ورد كراماتهم وشرفهم إليهم، ويحذر أهل الأندلس بأنهم إن لم ينهضوا للتفكير، فسوف يجدون أنفسهم أجلاً أم عاجلاً في المصير نفسه، ويبدأ منشوره بتعظيم الصفة الاعتبارية العقيدية لأهل الرباط والجهاد، من أهل ثغر بريشتر، وإيمانهم بعقيدة الاسلام، وقيمه ومثله وشعائره، وإنما هم في ذلك الثغر مجاهدون لذود الخطر عن معاقل المسلمين الآخرين، ييثون تباريح مصابهم، ولواعج فجيعتهم إلى أمراء المسلمين في الأندلس، ممن يدعون القيام على تدبير أمور الدين، ورعاية شؤون

المسلمين وحمائهم، ويعنونها بقوله: "من الشغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعروة الدين، المستهلكين فى حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الاسلام، المتآلفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتزليل، المقيمين على سنة الرسول... إلى من بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس، من ولاية المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين، من الرؤساء والرؤسين سلام عليكم" (٤٥).

ثم يستغفر أهل الأندلس وأمرأهم، بتصوير ما حل بهم من المأساة العظيمة، والفجعية المؤلمة، إذ خبطتهم النكبة وهم غارون عنها، فكانت فجاءة نكراء، ونازلة مهولة، فيقول: "فإننا خاطبناكم مستغفرين، وكاتبناكم مستغيثين، وأجفاننا قرحى، وأكبادنا حرى، ونفوسنا منطبقة، وقلوبنا محترقة، على حين نشر الكفر جناحيه، وأبدى الشرك ناجذيه، واستطار شرر الشر، ومستأ وأهلنا الضر، أحسن ما كنا بالأيام ظنا، وملتنا ظاهرة، وفئتنا متناصرة، لا تشل لنا يد، ولا يفل لنا حد، حتى انقلبت العين، وبان الصبح لذي عينين" (٤٦).

ثم يستغفر بأسلوب حكمي وعظي فى تأملاته، محاولا استبطان كنه ما جرى، ومحاولا التنبؤ بما قد يجره على الوجود الاسلامي من الويلات، إذا لم يعتبر باقي المسلمين بما حدث، ويتعظوا به، ويبادروا الى تلافي الخلل فى أحوالهم، وما هي عليه من الفرقة، ونبذ روح الأخوة، والفرع إلى همهم وسيوفهم، لدرء هذا الخطب الجارف عنهم، فيقول: "وأي أمان من زمان قلما يخضر منه جانب إلا جف جانب، ولا تبرق منه بارقة إلا اتبعها صاعقة، إلا ما وقى الله. وننبئكم - معشر المسلمين - بعض ما نابنا فى ثغورنا، عسى أن تكونوا سببا لنصرتنا، فالؤمنون إخوة، والمسلمون لحمة، والمرء كثير بأخيه، وإلى أمه يلجأ اللهفان، وإلى الصوارم تفرغ الأقران، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من عميت عيناه، وصمت عن الموعظة أذناه، ونقص عليكم من نبأنا، وما انتهت إليه حال ملأنا، ما والله يوجع القلوب سماعه، كما فصم الطهور، وأسحن العيون اطلاعه" (٤٧).

ثم يصف الضائقة المضنية التي حلت بهم أثناء الحصار، وكيف ضيق الأعداء عليهم، بأسلوب تصويري يفجع النفس، ويثير أشجانها لتخيل معاناتهم أثناء تلك المحنة، ثم تتردد نغمات الكاتب وتعبيراته بين اليأس مما حل بهم، والأمل بما لدى المسلمين من القوة لإنقاذهم، حيث يصور ذلك بعبارات تستغرق فى الإحساس بالأسى، والتفطر، وتجسد الواقع المادي بكل ألمه، وبطء حركات أفعال المحنة التي أوقعها النورمان فى المسلمين، فيقول: "فأحاطت بنا كإحاطة القلادة بالعنق، يسوموننا سوء العذاب، بضروب من الحرب، آناء ليلها ونهارها، تصب علينا صواعقها، وترمي إلينا بوائقها" (٤٨).

ثم يجسد صورة بصرية متحركة، وسمعية صاخبة مفاجئة، تعرض ما حل بوجود الإنسان المسلم، حيث استهدف هؤلاء الحاقدون فناءه، إذ قتلوا المقاتلة وهم عماد الدفاع عن بقائهم،

وسبوا نساءهم وأطفالهم، ليدمروا أسباب البقاء الإنساني الاسلامي، وانتهكوا أعراضهم ليعفوا على شموخ كرامتهم وكبريائهم، وليقتلوا حافظ البقاء، ويلقوهم في بوتقة اليأس من الحياة الشامخة بكبرياء الإنسان، وعنفوانه، إذ كانوا يقومون بالفتك بهم، وإهدار كرامتهم ببطء شديد، لينكوهم، ويتمتعوا بأبادتهم جسدياً ومعنوياً، وبخاصة أنه لم يهرع إليهم أحد ليوقف ممارستهم لتلك الأفعال الدنيئة على المسلمين، فاستغرقوا ما شاءوا من الوقت في متعتهم، وعانى المسلمون كل لحظة ما تمنوا فيها استعجال الموت، لينقذهم من تلك المحنة وانتظار غير المباليين من أنزال ملوك الطوائف، ومن ماتت نفوسهم من مسلمي الأندلس الآخرين، فقال: "فإننا لله، وإننا إليه راجعون، على ما رأيت منا العيون، من انتهاك تلك النعم المدخرات، وهتك ستر الحُرَم المحجَّبات، والبنات المخدَّرات، وما تَكشَّفَ من تلك العورات المُستَرات، فلو رأيتم -معشَرَ المسلمين- إخوانكم في الدين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتم الجراح، وعبثت بهم زُرُق الرماح، وقد كثر الضجيجُ والعيولُ والنياحُ، ودمأؤهم على أقدامهم تسيل، سيل المطر بكل سبيل، ورؤوسهم قدأهم تطير، وقلوبهم في أجسادهم تستطير، ولا مغيث، ولا مجير، وقد صُمَّت الأذانُ، بصراخ الصبيان، ونياح النسوان، وبكاء الولدان، وعلت الأصوات، وفشت المنكرات" (٤٩).

ثم يأخذ بتصوير عناصر المأساة التي لحقت بالمسلمين، فقد استهدف الأعداء نكبتهم في الأرض، والإنسان، والعقيدة، والحضارة، فقد مست هذه النكبات كل مقومات الوجود الاسلامي في تلك الديار، ويصف محنة المسلمين في دينهم وعقيدتهم، إذ انتصر في هذه الوقعة أصحاب الصليب للصليبيهم، وحلت أصوات النواقيس محل آي القرآن الكريم، ودُست المساجد بتحويلها إلى كنائس، وأحرقت المصاحف، ودمرت المساجد، وقتلت الأئمة، وكأنهم عزموا على إبادة كل إثر له صلة بعقيدة الاسلام فقال: "تمرد الشيطان، واشتهر الطغيان، وظهرت الصليبان، وأفصحت النواقيس، وجلَّت الأباليس... ومصاحف تمزق..." (٥٠).

ثم يشحن عباراته بمأساة الدين الذي أبلى الكفار معاملة، ليقرع ضمائرهم، علمهم ينهضون لنصرة دينهم، ورفع الضيم عنه، موضحاً لهم أن هذا الصراع مع هؤلاء الصليبيين هو صراع عقيدي، حضاري، في جوهره، تشحنه الكنيسة ورجالها من القساوسة والبابوات، بحقد جارف، ضد كل ما له علاقة أو شأن بالاسلام وحضارته، فكانت هذه الوقعة جولة مؤلة للباطل وأهله على الاسلام، فأذلوا أهله، وانتهكوا حرمة، ومقدساته، وقيمته، بكل معاملة على الجملة. فقال يصحَّيهم من غفلتهم: "ما ظنكم -معشَرَ المسلمين- وقد رأيتم الجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مطبقة بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصليبان، عوضاً عن شيعة الرحمن، والأئمة والمتدينون، والقومة والمؤذنون، يجرُّهم الأعلاج

كما تُجَرِّدُ الذبائح إلى الذابح، يُكَبِّونَ على وجوههم في المساجد صاغرين، ثم أُضْرِمَتْ عليهم نار حتى صاروا رماداً، والكفرُ يضحكُ ويُنْكِي، والدينُ ينوحُ ويبكي" (٥١).

ثم يصرخ مستغيثاً لهذا المصاب، محاولاً التعالي على جراح دينه وعقيدته، محاولاً تحريك نفوس المسلمين هناك بعد أن اعتادت الخنوع، وتحريك غيرتهم على الدين بعد أن اعتادوا الدنية فيه، والسكوت على انتهاك قدسيته، وتجاوز معانيه السامية، بما يلحقه الكفر بإخوانهم في معاقل الثغور، حيث تجسدت قمة الاستهتار بهم في مأساة بريشتر، فيقول: "فيا ويلاه، ويا ذلاه، ويا كُرياه، ويا قرآناه، ويا محمداه، ألا ترى ما حلَّ بحملة القرآن، وحَفَظَةَ الإيمان، وصُومَ شهر رمضان، وحجَّاج بيت الله الحرام، والعاكفين على الصلاة والصيام، والعاملين بالحلال والحرام، فلو شهدتم -معشر المسلمين- ذلك لطارت أكبادكم جَزَعاً، وتقطعت قلوبكم قطعاً، واستعذبتم طعم المنايا، لموضع تلك الرزايا، ولهجرت أسيافكم أغمادها، وجَفَّتْ أجفانكم رقادها، امتعاضاً لعبدة الرحمن، وحفظة القرآن، وضَعْفَةَ النساء والولدان، وانتقاماً من عبدة الطغيان، وحَمَلَةَ الصليبان" (٥٢).

فهو هنا يعيد ما وصفه في مطلع الرسالة من واجب أهل بريشتر على سائر مسلمي الأندلس، للإسراع باغاثتهم، لأنهم كانوا في ثفرهم مجاهدين ومرابطين، للذود عن حمى الاسلام في سائر أنحاء الأندلس الأخرى. ويصور الكاتب المحنة التي أصابت الديار والأوطان التي درجوا عليها، ونشروا فيها الحضارة والعدالة، وامتزجت بضمائرهم وأرواحهم، وهي تدمر بأيدي الطفلة، ويمزجها بمأساة الإنسان الأندلسي المسلم، الذي استهدف أولاً بمجازر الصليبيين ومذابحهم البربرية، وتعرضه للتصفية الجسدية، أو لمصادرة إرادته وكرامته وحرية وشرفه بالاسترقاق والأسر والسبي، وانتهاك العرض، فظائع لم يسلم منها الشيخ، ولا الطفل، ولا المرأة، بعد تصفية الرجال الحماة من المجاهدين، فيرسم مناظر تنفطر لها القلوب، وتقشعر لها الأبدان، وتتقرز منها كل نفس بشرية لديها ذرة من الحضارة، أو الإحساس الإنساني، لبشاعتها ووحشيتها، فيقول واصفاً ما حل بالمسلمين من المجازر، فأذهلتهم المأساة وكأنهم في يوم القيامة لهولها: "وسَعَرَتْ طفلة الخنازير، وصارت الدور كالتنانير... ومساجد تحرق، فلا الأخ يغني أخاه، ولا الابن يدعو أباه، ولا الأب يدني بنيه (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه) ❖، ولا المرضعة تلوي على رضيعها، ولا الضجيعة ترثي لضجيعها، كأنهم في مثل اليوم الذي ذكره الجليل، في مُحْكَم التَّزِيل (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى) ❖" (٥٣).

وبعد أن يفرغ من هذا التناص بروح العبارات وألفاظها، بالمقارنة بين هول تلك النكبة، وهول قيام الساعة، بما تدخل من الهلع، والفرع الشديد في النفوس، وتذهلها عن كل شيء من معاني ذاتها، يعود ويعرض الصور البصرية الحركية لما جريات المأساة، وما تمثله من تفاصيل

أحداث المجزرة، والأفعال التعذيبية الإضطهادية التي ارتكبت في بريشتر، فيقول: "فما ظنكم -معشر المسلمين- وقد سبقت النساء والولدان، ما بين عارية وعُريان، قوداً بالنواصي إلي كل مكان، طورا على المتون، وطورا على البطون، ومشيغة الرجال، مُقَرَّنِينَ في الحبال، مصفدين في السلاسل والأغلال، مقتادين بشعور السَّبال، إن استرحموا لم يُرَحِّمُوا، وإن استطعموا لم يُطْعَمُوا، وإن استسقوا لم يُسَقَّوْا، وقد طاشت أحلامهم، وذهلت أوهامهم، وسخنت أعيانهم، وتغيَّرت ألوانهم" (٥٤).

ثم يتجاوز الكاتب مشاعر اليأس والهزيمة، ويثور داعياً إلى النفير والجهاد، ويطلق صرخة غضب مدوية تدعو إلى نبذ التخاذل والمساورة إلى أداء الواجب في الدفاع عن الوجود الاسلامي، وتلبية داعي العقيدة التي تحتم النفير العام، إذا ما اجتاحت ديار المسلمين على الفور، فيقول: "وقد ندب الله مسلمي عباده إلى الجهاد في غير ما آية من الكتاب، يضيق عن نصّها الخطاب، ترغيباً وترهيباً، فوعد المطيعين جزيل ثوابه، وألصق عقابه، والرواية عنه، -عليه السلام- في فضل الجهاد، وما يجازي فيه ربّ العباد، أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، فالله الله في إجابة داعينا، وتلبية منادينا، قبل أن تصدع صفاتنا كصدع الزجاج، فهناك لا ينفع العلاج" (٥٥).

فهو يستنهضهم لاداء فريضة الجهاد، في مثل هذه الأحوال، ويوكلهم في ذلك إلى عقيدتهم وإيمانهم، وبما جاء في القرآن والسنة من الحض عليه، والترغيب فيه، غير أنهم لو كانوا من أهل الإيمان الصادق، لما احتاجوا إلى التذكير، ففريضة الجهاد في هذه الحال لا تغيب عن علم أحد منهم، ولكنهم تخاذلوا رغم ذلك، وقعدوا عن تلبية داعيه، فيعرض بضعف إيمانهم إزاء ذلك، ويحذرهم من كثرة ذنوبهم، وسوء أفعالهم التي تخالف العقيدة، حتى وصلت بهم الأمور من المهانة والضعف والانقسام إلى ما وصلت إليه، ويحاول تشخيص أسباب التخاذل، وروح الأنهازام عند أهل الأندلس، ويدعو إلى معالجتها بالتمسك بالعقيدة وتعاليمها، والجنوح إلى الإلفة، والوحدة ونبذ الخصام، والتناصر بين المسلمين، فيقول: "لا بدّ للحق من دولة، وللباطل من جولة، والحرب سجال، والدهر دُول، (لكلّ أمة أجلٌ) ❖، ولولا فرط الذنوب، لما كان لريحهم علينا من هبوب، ولو كان شملنا منتظما، وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم، ولا ذلّ لنا حزب، ولا قلّ لنا غرب، ولا روع لنا سرب، ولا كدر لنا شرب، ولكننا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين" (٥٦).

ثم يحذرهم من أن الصراع ما زال في بدايته، وسوف يكون لهذا المد العدائي من النصارى ما بعده، ولن تقتصر المأساة على بريشتر، وإنما هو كالبركان الذي يصيب بحممه القاصي والداني، ويطلب منهم أن يستفيقوا، ويتفكروا في أمرهم، ويعدوا العدة لرتق الصدع، فقد

وقاهم أهل بريشتر بأرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وكانوا جنة لهم من أعدائهم انهارت، فإن لم ينهضوا فستدور الدائرة بعدها عليهم، فتفريطهم في أمر أهل بريشتر، إنما هو تفريط في حق أنفسهم ووجودهم في كل أنحاء الأندلس، فيقوم محذراً، وقارعا ناقوس الخطر في كل أرجاء الأندلس، ويقول لهم "فالحذر الحذر، فإنه رأسُ النظر، من بركان تطاير منه شرر ملتهب، وطوفان تساقط منه قطر مرهب، قلما يؤمن من هذا إطراق، ومن ذلك إغراق، فتنبهوا قبل أن تُنبهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم، قبل أن يجاهدوكم في دوركم، ففينا مُتَعَطِّلٌ لِنِ اتْعَطَ، وعبرة لِنِ اعتبر، فانظروا إلى ثغورنا كيف تُهْتَضَمُ، وإلى أطرافنا كيف تُخْتَرَمُ، وفيئنا كيف يُقْتَسَمُ، وأموالنا كيف تُصَلَّمُ، ودمائنا مطلولة، وحدودنا مفلولة، وأنتم عنا لاهون، في غمرة ساهون، وكأنا لسنا منكم، ولا نحن سيدادُ دونكم مضروبة، وجُنْ نحوكم منصوبة" (٥٧).

وواضح استيحاؤه لخطبة الإمام علي في هذه الفقرة التي يدعو فيها أصحابه إلى مبادرة أعدائهم قبل أن يغزوهم في عقر دارهم، وهذا وعي ثاقب من الكاتب بكنوز تراثه، وتوظيفها في أدبه، ويختم ابن عبد البر رسالته الطويلة هذه بصورة مؤثرة عميقة، غزيرة في دلالاتها وايحاءاتها، ووعي الكاتب وقدرته على استشراف الغيب من خلال الواقع برؤية عقلية وحساسية نقية صائبة، فيقول: "وأنه إن استلبت الأطرافُ، لم تتعذر الأنصافُ، والبعضُ للبعض سببٌ، والرأسُ من الذنب، غير أنا ذنونا وبعدهم، وشقينا وسعدتم، ورأينا وسمعتهم، وليس الخبرُ كالعيان، ولا الظنُّ كالعرفان، ولقد آن أن يبصر الأعمى، وينشط الكسلانُ، ويستيقظ النومان، ويشجع الجبان" (٥٨) فيختمها بشموخ صوفي حزين إلا أنه بعيد عن اليأس، ومفعم بالكبرياء وتجدد الأمل.

وهذه الفصول التي اثبتتها ابن بسام، مختارات اقتضبها "من رسالة فيها طول" (٥٩) ليته اثبتها كلها لأهميتها ولقيمتها الفكرية والفنية والتاريخية.

ويبدو أن ابن عبد البر قد نجح في التأثير في أهل الأندلس، وأثار هذه المسألة على الصعيد الخاص عند الأمراء والفقهاء والكاتب، وعلى الصعيد العام عند مختلف طبقات الناس في الأندلس.

وقد أثارت مأساة بَرِيَشْتَر ومعاناة أهلها مشاعر غير واحد من كتاب الأندلس، حيث امتد صداها على نطاق واسع بين أهل الأندلس، لكونها أولى النكبات التي حلت بأهل الأندلس، وأبشعها وقعاً، وأعظمها خسائر في الأرواح والأسرى والأموال، إذ فنيت فيها بريشتر، بكامل سكانها، وانتهبت المدينة بكاملها، وأسر وسُبي من بقي على قيد الحياة من أهلها، ولم يكن أهل الأندلس قد ابتلوا بمثل هذا المصائب من قبل، فكان استشعار الخطر من جرائها في النفوس عظيماً، ووقعها مذهلاً (٦٠).



وقد كانت رسالة ابن عبدالبر نداء عاماً للنفير والجهاد، وجهه إلى كل سكان الجزيرة، دون تخصيص أو استثناء، غير أن كاتباً آخر وهو أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني ❖ قام باستنهاض أمير بعينه، وخصه بالدعوة إلى القيام بإنقاذ أهل بريشتر والانتقام لهم دون غيره من أمراء الجزيرة، حيث خمن أن لديه القدرة على ذلك، وأنه لا عذر له عن التخاذل، وعدم تلبية داعي النفير، فاختر صديقه المعتضد بن عباد، وخصه بهذه المهمة الجليلة، التي قعد عنها جميع أمراء الجزيرة، حيث كان أقوى أمراء الطوائف في هذه الفترة، فأرسل إليه يستثير عزيمته، ويستنهض حميته على الجهاد، ونصرة مسلمي بريشتر، وغيرهم من مسلمي معازل الثغور، الذين ينتظروهم المصير نفسه، وهذه الرسالة مزيج من النثر والشعر، فيبدأها بأبيات من الشعر يصف ما حل بالمسلمين من المحن والبلاء، مما يشغل العقل، ويذهل القلب، فيقول منها:

|                                     |   |
|-------------------------------------|---|
| أعبادُ جَلَّ الرزءُ والقومُ هُجَّعُ | على حالةٍ من مثلها يُتَوَقَّعُ          |
| فَلَقَّ كتابي من فراغكِ ساعةً       | وإن طال، فالوصوفُ للطول مَوْضِعُ        |
| إذا لم أبثَّ الداءَ ربَّ دوائِهِ    | أضَعْتُ، وأهلُ للملامِ المُضَيِّعُ (٦١) |

ثم يصف ما حل بالمسلمين، من محنة القتل والأسر والسبي، بقوله: "وكتابي عن حالة يشيبُ لشهودها مَفَرُّ الوليد، كما يَغْبَرُ لورودها وجهُ الصعيد، بدؤها ينسفُ الطريفَ والتالد، ويستأصلُ الوليدَ والولدَ، تَذُرُ النساءَ أيامي، والأطفالُ يتامى، فلا أئمة إذا لم تبق أنثى، ولا يتيم والأطفالُ في قيد الأسرى، بل تعمُ الجميعُ جماً جماً، فلا تخص، وتزدلف إليهم قُدماً قُدماً، فلا تتكص" (٦٢).

ثم يصور مأساة الاسلام ونكبته، من خلال إبادة رعاياه، وحرق مقدساته، وانتهاك حرماته، حتى عفي على آثاره في تلك المدينة، فهذه النكبة قد "طَمَتْ حتى خِيفَ على عُرْوَةِ الإيمانِ الانقضاَضِ، وطَمَتْ حتى خُشِيَ على عمودِ الاسلام منها الانقضاَضِ، وسمَتْ حتى توقَّع على حناج الدين الانهياض" (٦٣).

ثم يستنكر على المسلمين وأمرائهم وفقهائهم صمتهم، وتخاذلهم عن النفير إلى بريشتر، وكأنهم لم يسمعوا بآيات القرآن التي تدعو إلى الجهاد، ويتهمهم بضعف الإيمان، والخنوع والجبن عن مواجهة الأعداء، ويحثهم على النهوض للجهاد، وترك الخذلان، والقعود المريب عنه، ويصور حالتهم تلك "كأنَّ الجميعَ في رَقْدَةِ أهل الكهف، أو على وعد صادق من الصَّرف والكشف، وأنَّى لمثلها بالدفاع عن الحريم، ولما نمتلئ أدب العزيز الحكيم في قوله (ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض) ❖ وقوله (لَهْدَمْتَ صَوَامِعُ، وبيعُ، وصلواتُ، ومساجدُ يذكر فيها اسمُ الله كثيراً، ولينصرنَّ الله من ينصره) ❖، ومن أين لنا دفعهم بالكفاية أو كيف،

ولم نمتط إليهم الخوف، ونساجلهم السيف، بل لما يُرأب من صدوعهم ثلم، ولا دُوي من جراحهم كَلَم، ولا رُدَّ في نحورهم سَهَم، إن حاربوا موضعاً أرسلناه، أو انتسفوا قطراً سَوَّغناه، وإن هذا لأمرٌ له ما بعده، إلا أن يُسْتَي الله على يدك دَفَعَه وَصَدَّه (٦٤).

ويذكر له أن الحرب تحتاج إلى تضحيات، وهي بأس شديد لا يطيقه كل أحد، وإنما لها رجالها، الذين نذروا أنفسهم لها، وخوض غمارها، يصبرون على شدائدها، ويتحملون لأواءها، ويعدون لها عدتها، فيقول "الحربُ في اجتلائها حسناء عروسٌ، تطبي الأعمارَ بزتها، وفي بنائها شمطاء عبوسٌ، تختلي الأعمارَ غرتها، فالأقل للهبها وإرد، والأكثر عن شُهبها حائد، فأخلق بمجيدٍ عن مكانها، وعزلة في ميدانها، فوقودها شكة السلاح، وفرندها مساقطُ الأشباح، وقتارها متصاعدُ الأرواح، فإن عَسَّسَ ليلها مدةً من الانصرام، أو انجسَ وبُلها ساعة الانسجام، فيومها غسقَ يردُّ الطرفَ كليلاً، ونَبُلها صَيَّبَ يزيدُ الجوفَ غليلاً" (٦٥).

وكأنه بذلك يعرِّضُ بأمراء الأندلس، وعدم طاقتهم للقتال، وتخاذلهم عنه جبناً، وخوفاً من ويلات الحرب وشداتها، ثم يستثني منهم ابن عباد، ليعلل بذلك سبب قصده له بالاستنفار، ونجدة المسلمين، وذلك لشجاعته، ولنخوته المعروفة التليدة، ولغيرته على المسلمين وديارهم، من بين سائر أمراء الأندلس، فيخطبه قائلاً "فانتَهزْ فرصتها، فقد بان من غيرك العجز، وطَبَّقْ مضاربها، فكأن قد أمكنك الحز.... وما زلتُ اعتدُّك لمثل هذه الجولة وَزراً، وأدّخرك في مُلَمَّها ملجأً وَعَصراً، لدلائل أوضحتُ فيك الغيب، وشواهد رفعتُ من أمرك الريب... فقد كان ظَهَرَ قديما من اختلال الأحوال ما أياُس، وتبيَّن من فساد التدبير ما أبلَس، حتي تدارك فتق ذلك سَلَفُك، فرتقه جميلُ نظرهم ورأبه، وصرفه مشكورُ أثرهم وشعبه... ثم تَوَلَّيتُ فَكفَّيتُ، وخَلَفْتُ فَأرَبَّيتُ... ففضلكم في الأعناق أطواق، ومجدكم للأفاق إشراق... فمن طَلَبَ النَّبْلَ في غير مَعَادِنه، واستنار الخير من غير مَكَامِنه، أعجزه من مَطْلَبه مَرَامُه، وطاشت في سُهْمَتِه أعلامُه، بل قد ضَلَّ قَصْدُ السبيل، واعتسفَ الفلاة بغير دليل، فسقط العشاء به على سِرْحان، وأفضى القضاء به إلى الطوفان، وإنما هو الفجرُ أو البحرُ" (٦٦).

وقد صدقت عباراته الأخيرة على حاله مع المعتضد فيما بعد، فأثبت أنه أشد خسارة من أمراء الطوائف الآخرين، فبدلاً من أن ينهض بما لديه من القدرة والقوة لتلبية نداء الجهاد، استدرج المعتضد الهوزني ليعود من مُرْسِيَةٍ ❖ إلى إشبيلية❖، وشغله عما أضمره له من السوء، ثم بطش به وقتله بيده، ويعلل ابن بسام فعلة ابن عباد بأنه كان يخشاه على ملكه، لعلو مكانة الهوزني بين أهل إشبيلية، ويقول "وأفضى أمر إشبيلية إلى عباد... وأبو حفص يومئذ ذات نفسها... ووأحدها الذي بيده ينقض ويبرم، وكأن بينه وبين ابن عباد قبل إفضاء الأمر إليه... ائتلاف الفرقدنين... ولما ثبت قدم المعتضد في الرياسة... أوجس منه ذعراً... وأحس أبو حفص... فاستأذن المعتضد في الرحلة... واستأذن المعتضد في سكن مرسية... فلما غلب

الروم على مدينة بريشتر سنة ست وخمسين، وقرف الندب، وتفاقم الخطب، وضاق عن ساكنه الشرق والغرب، خاطب المعتضد برقة يحضه فيها على الجهاد... فراجعته... بالرجوع إلى بلده، لا بل استدرجه إلى ملحده، فأذهله عما كان استشعر... فاستقر بإشبيلية سنة ثمان وخمسين، فلما كان... سنة ستين أحضره القصر... وأمر خادمين من فتيانه بقتله، فكلاهما أشفق من سوء فعله، وفر، لا يبالى سيء عباد أو سُرّ، فقام إليه هو بنفسه، وبأشر قتله بيده" (٦٧).

وإضافة إلى خشية ابن عباد من الهوزني على سلطته، فربما ظن أن الهوزني استقصده بدعوة الجهاد هذه، من أجل توريطه سياسياً، وعسكرياً، فإذا حارب وأخفق اهتزت مكانته بين ملوك الطوائف، وهو آنذاك أقواهم، وإذا لم يحارب، كشف عن تخاذله وتقصيره في الدفاع عن الاسلام (٦٨). وكان إعلان الجهاد، أو التظاهر بذلك مدعاة لتقريب الأمير إلى قلوب الناس، وازدياد شعبيته واحترامه في نظرهم، وكانوا ينقبضون في مثل هذه الظروف عمّن يتخاذل عنه (٦٩).

ومن أمراء الطوائف وبلغائهم الذين تفاعلوا مع هذه النكبة، وتأثروا بمأساة أهل بريشتر أبو عبدالرحمن محمد بن طاهر، أمير مرسية (ما بين ٤٥٥هـ - ٤٧١هـ)، فكتب لأحد أقرانه ممن شاهد هذه المحنة وأرسل إليه بوقائعها، فوصف ابن طاهر له أثر وقع هذه النكبات في نفسه، ويصور ما حل بديار المسلمين من البلاء، وما أوقعه الأعداء في أهل بريشتر، وكيف أخذ الأعداء باخترام الثغور المنيع، والمعازل الحصينة من ديار المسلمين الواحدة بعد الأخرى. حيث استولوا على قلعة قلّهرة❖ وغيرها، فيندب نكبة المسلمين في ديارهم ومواطنهم، فيقول "ورد كتابك بالخطب الأبقع، وجمع على الائتلاف مذاهبهم - في مدينة بريشتر، وكانت صدرا في القلاع المنيفة، وعيناً من عيون المدائن الموصوفة، إلى ما سبق قبل في القلعة القلّهريّة، وغيرها من مهمات القلاع الدُرُوب❖ والمعازل، وخطيرات الحصون والمنازل، فأطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وصرم الآمال والهمم، وأسلم من الذلة والقلّة إلى ما قصم" (٧٠).

ويلحظ اهتمام هذا الأمير الكاتب بالنكبة التي مست الأرض والوطن، وبخاصة تلك الحصون والقلاع والثغور المنيع، التي كانت تقف لدرء الخطر عن حواضر المسلمين الإخرى، حيث تساقطت تحت سنايك خيول الصليبيين في غير رحمة، وراحت تتقلص يوماً بعد يوم، لتساقطها في أيديهم، إلى أن أصبحت في نهاية المطاف بقايا ديار محاصرة تضم بقايا حضارة تستعد للفناء، والخروج عن تلك الديار التي عمرتها قروناً بنورها وتسامحها. ثم يفرق في أسى عميق، لا يكاد يخرج منه إلى آخر رسالته، فيقول متحسراً على ما أصاب المسلمين من القتل والسبي والنهاب، "وإنك رأيت الحال في معرض جلاها للنواظر عياناً، ووصل بينها وبين الخواطر أسباباً وأشطاناً، فما شئت من دم مسفوح مراق، ونفس مترددة بين لهاة وتراق،

وأسى قد قرع حصيات القلوب فرضها، وعدل عن المضاجع بالجنوب فقضها، ومآل تستك من سماعه الأسماع، وتضيق عن إيراد حقيقته الرقاع، فאלله يدرأ فى نحر ما فدح من الخطوب الكبار ويدفع، وإليه نلجأ فىما أظ من عقيم الدواهى ونفزع، فمنه الغوث والانتصار، وعادة الإقالة إذا جد العثار" (٧١).

فهو لا يخرج عن التأسى والحزن، باحساس يائس قانط، ولا يزيد عن إسلام الأمر لله، واستغفاره على تقصيره كغيره من ملوك الطوائف فى حق أهلها، فلا نجد أية إشارة إلى النفير أو الحث على الوحدة، أو إغاثة المنكوبين من المسلمين أو استرداد ديارهم المسلوبة. ويمثل سلبية الأمراء وقتها فى التفاعل مع هذه الأحداث الجلية. ورسالته هذه لا تتعدى على ما يبدو الاستعراض البيانى فى إطار رسمى، للخروج من الملامة. فقد ذهبت هذه الصيحات المحذرة والمنبهة على فداحة الأحداث والمصير والمستصرخة للاستغاثة والنجدة، ونبد التخاذل، أدراج الرياح، وتلاشى صداها المحموم بعد فترة وجيزة، وذلك واضح من إمعان هؤلاء الأمراء فى فرقتهم وخصوصياتهم، ولا مبالاة رعتهم بما كان يدور من حولهم، ولهوهم عما تخبئه الأيام لهم (٧٢). حتى وإن نجحت هذه الصيحات نجاحاً محدوداً مؤقتاً بالضغط على المقتدر بن هود، وحليفه ابن عباد لطرد سوء القالة عنهما، لتخاذلها عن أهل بريشتر (٧٣). بالعمل على استردادها، والتأثر ممن استوطنها من الفرنج بعد تسعة أشهر من ضياعها سنة ٤٥٧هـ، حيث "استؤصلوا أجمعين، إلا من استرق من أصاغرهم وابتغوا الفداء من أعاضهم، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم، وتملكوا المدينة بقدرة الخالق البارى... وقتل من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسائة رجل، فاستولى المسلمون بحمد الله عليها، وغسلوها من رجس الشرك، وجلوها من صداً الإفك" (٧٤).

إلا أن ذلك لا يقدم ولا يؤخر شيئاً فى حال هؤلاء الذين نكبوا من أهلها، وتوزعتهم أسواق الرقيق فى أوروبا، فضاءوا إلى الأبد، وأشك فى أن المدينة عادت إلى الحياة بعدها. أما حال أهل الأندلس التى أدت إلى ضياع تلك الثغور المنيعه، فقد ازدادت بعد ذلك سوءاً، حيث ازداد تفاقم خطر الاسبان، وكتبهم على حواضر المسلمين الكبرى، مما أدى إلى ضياع عاصمة الثغر الأوسط طليطلة ومملكها، وسقوطها فى أيدي القشتاليين بقيادة الفونسو السادس، سنة ٤٧٨هـ. فكانت نكبة على المسلمين أفدح من سابقتها، وجرت إلى ما هو أفدح منها فيما بعد.

### صلى نكبة طليطلة :

كانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط الأندلسى، وحاضرة دولة بني ذي النون، وهى مدينة منيعه وحصينة، ذات موقع هام، يواجه ثغور الممالك الاسبانية آنذاك، على مشارف الأندلس الشمالية الوسطى، وأشهر أمرائها المأمون يحيى بن ذي النون ❖ (حكم بين عامى

٤٢٥هـ-٤٦٧هـ) وابتنى فيها قصره المشهور، والمعروف بالمنية، وكان على نزاع مع سليمان بن هود ❖، صاحب سرقسطة، فاستعان كل منهما على صاحبه بفِرْدَلَنْد (فرناندو الأول)، ملك قشتالة وليون، ودفعوا له الجزية، وأقرا له بالسيادة (٧٥).

والى الفتنة بين هذين الأميرين المشؤومين على المسلمين، يشير ابن القصيرة ❖ في إحدى رسائله، مؤكداً "أن أكثر ملوك هذا الإقليم، كانوا يداخلون طوائف الروم، ويكتري كل واحد منهم عسكرياً بجملة من المال، يخرجوه إلى بلد كاشحه، ويُسلطه على معانده، ممن يجاوره من البلاد، حسداً له، وطمعاً في بلده، أن يصير طوعاً يده... إذ كان كل واحد منهم يختفي عن قرنه بقصره، ويطيل الهز لسيف غيره، ويسله على جاره، حتى غدا السيف مسلولا عليه..." (٧٦).

ويؤكد ابن عذاري ذلك بقوله "فلج ابن ذي النون في الفتنة، ومطالبة سليمان بن هود فآداه اللجج والجنوح إلى مظاهرة النصاري، والتناصر بهم، فاستمال القومسين الأشيئين من ولد الطاغية شانجة... وجرت خيولهم كيف شاءت في بلاد المسلمين مطمئنين، ولاذ منهم ابن هود وولده بحصونهم، وتركهم يجولون في الأرض، فلا أحد يصدهم عن ذلك... فنزل المشركون بساحتها نزول إقامة... ثم انصرف العدو عنهم إلى أرضه، بعد ما قتل، وأسر، ودمر، فقوي طمعه فيهم، وامتدت آماله إلى التغلب على بلاد المسلمين، إذ لم يقف أحد في وجهه، وتمكن خلال ذلك يحيى بن ذي النون من العبث فيما يليه من بلاد ابن هود، ولم يُقَصِّر في إفساد ما وطىء من أرض المسلمين" (٧٧).

وبالمقابل ظاهر سليمان بن هود فردلند بن غرسية، أطمعه بأموال جملة وهدايا، وطلب منه أن يغزو أرض ابن ذي النون "فخرج بعدد عظيم إلى ثغر طليطلة، فأفنى حماته ورجاله، وعاث في بلادهم، وصب الله تعالى على أهل الثغور من الجبن عن العدو، ما لا كفاء له، فلا يكاد أحد منهم يلقي نصرانيا في قرار من الأرض، الا ويوليه الدبر، غير مستحيي من الله سبحانه، من الفرار أمامه، حتى تعود أعداء الله ذلك منهم، فلا يعدون حبْلَهُمْ ❖ شيئاً، فذهبت أكثر أحوال أهل طليطلة، بتكرار الغارات عليهم، وفشت جوائحهم، وجلا كثير من أهل ضياعهم وأطرافهم إلى قاعدتهم" (٧٨).

ويوضح ابن عذاري مطامع هؤلاء النصاري في أملاك المسلمين، وتجريء ابن هود وابن ذي النون لهم على أراضي المسلمين ودمائهم، مما أثار مطامعهم في تلك الغنائم والديار السائبة، بل قام أصحابها بانفسهم باستدعائهم إليهم، فقد انضم إلى ابن هود عبدالرحمن بن اسماعيل بن ذي النون، أخو يحيى الذي نازعه سلطانه، وسار مع فردلند هذا أمير جليقية إلى ثغر طليطلة، ودله على عورات البلاد "وتهارب الناس أمامه من كل جهة إلى طليطلة، حتى غَصَّتْ بهم، واضطربت أحوال أهلها... فلما تيقن (يحيى بن ذي النون) بخروج هذا اللعين إلى عمله، وضجت رعيته إليه، جاء في جموعه، فلم يصنع شيئاً، ولم يقدر على لقائه" (٧٩).

ولما اشتد الحصار على الناس، وغلت الأسعار، أرسل أهل طليطلة إلى فردلند (فرناندو الأول)، حليف ابن هود، لعقد الصلح على مال يؤدونه إليه، ويرحل عنهم، فعند ذلك ظهرت مطامع هذا الملك الحقيقية، وشرهه على ما بأيدي المسلمين، وكلبه عليهم، لما أبداه له أمراؤهم من الخنوع والذل، فقال لهم "ما أجيبكم إلى سلم، ولا أعفيكم من حرب، حتى تفعلوا كذا وكذا، واشترط عليهم شروطاً لا يقدرّون عليها، فقالوا: لو كنا نقدر على هذه الأشياء، وهذه الأموال لأنفقناها على البرابرة، واستدعيناكم لكشف هذه المعضلة، فقال لهم فردلند: أما قولكم لا تقدرّون على هذه الأموال، فذلك محال، فلو كشفت سقوف بيوتكم لبرق ذهباً لكثرت، وأما استدعائكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا، وتهددوننا به، ولا تقدرّون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم، ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نصّرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكتناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم" (٨٠).

ودامت الفتنة بين ابن هود وابن ذي النون على هذه الحال من سنة ٤٣٥هـ إلى آخر سنة ٤٣٨هـ، أطمعوا فيها الأعداء في الثغور الإسلامية في سرقسطة وطليلة، وجراؤهم عليها حتى حصلوها منهم، ونكبوا المسلمين فيها، واستباحوا أراضي المملكتين الإسلاميتين بمساعي ابن هود وابن ذي النون الذميمة (٨١). لذا خرج فرناندو ملك قشتالة سنة ٤٥٤هـ، للإغارة على أراضي المسلمين، ولكن لحسابه الخاص، وإخضاعها للملك، أو لارهاقها بدفع الجزية، وإضعاف أهلها، وانقض على أراضيها الشمالية، فخرّبها، وعاث فيها فساداً شديداً، فأذعن المأمون إلى مصالحته على دفع الجزية، وبقي الأمر على ذلك حتى توفي فرناندو سنة ٤٥٧هـ، فتنازع ابناؤه الثلاثة العرش، ففر ابنه الفونسو إلى طليطلة في حماية المأمون ابن ذي النون، وبقي فيها تسعة أشهر استطاع في ضيافة صديقه وحاميه أن يدرس أحوال طليطلة، وأحوال بلاطها، وموطن ضعفها وطرق مهاجمة تحصيناتها، وأن يستغل ذلك فيما بعد، في تدبير القضاء على مملكة المأمون، زمن حفيده القادر، بعد أن عاد الفونسو إلى عرش قشتالة (٨٢).

وتوفي المأمون سنة ٤٦٧هـ، بعد حكم ثلاث وثلاثين سنة، وتولى من بعده حفيده القادر يحيى، وكان حدثاً قليل الخبرة، رُبّي في حجور النساء، وغلب على أمره العبيد والموالي (٨٣)، وكان جده قد أوصاه أن يتمسك بالفقيه أبي بكر بن الحديدي، فسخنهم في مطبق، بحصن وبُذّة للمأمون عن دسائس مشيخة طليطلة، للتخلص من يحيى، فسجنهم في مطبق، بحصن وبُذّة المنيع، فلما تولى القادر، جعلت بطانته ومنهم الفقيه ابن المشاط، قاضي قونكة يكيّدون لابن الحديدي عنده، فيتخلصوا منه، فاستدّرج ابن الحديدي إلى قصر القادر، وقتله ابن المشاط. غيلة، ثم قام القادر باطلاق سراح المتأمرين الذين سجنهم جده، فثارَت العامة لمقتل ابن

الحديدي، وانقسم الناس أحزاباً "فلم يزد بموت الحديدي وحياتهم على أن كان الشر سبباً، فأصبح أسباباً، والناس حزباً، فتفرقوا أحزاباً..." (٨٤).

فكشفت سياسة القادر هذه على أنه "كان... آية في قرب غوره، وسكوت فوره، والحوّر بعد كوره، إمعة، أجنب من قبرة، إن حزم لم يعزم، وإن أسدى لم يلحم..." (٨٥).

وثار عليه الوزير أبو بكر بن عبد العزيز ❖ ببلنسية، وخرج عن طاعته، وتحرك ضده حزب المشيخة، الذين أطلقهم من السجن، وتحركت أطماع أذفونش بن فرذلند ملك قشتالة في مملكته، واشتط عليه في مطالبه، وطالبه بمال طائل، ويتسلم عدد من حصونه وأعماله، والقادر بضعفه عاجز عن رده، مرغم على إرضائه. حتى كادت خزائنه تنضب، ففر من طليطلة إلى حصن وبّده ❖ سنة ٤٧٢هـ، ومنه إلى حصن قونكة ❖، "وخرج من بعض المخارج الخفية، ومشى القهقري، قبل غير وما حري، فاستأسدت كلابهم لأكل لحم ليس له ناصر... وألقوا يومئذ في سؤر الطاغية أذفونش من تلك الجواهر المكنونة، والذخائر المصونة" (٨٦).

فأفلتت زمام الأمور في المدينة، وأقام أهلها "في هياط ومياط، ولجب، واختلاط، ليس عليهم أمير، ولا فيهم مشير" (٨٧).

فتزعّم عليهم رجل يدعى ابن القلاس، فرأى جماعة منهم أن يستدعوا المتوكل بن الأفطس، صاحب بطليوس ❖، ليتولى عليهم، فقبل المهمة كارها، ودخل طليطلة سنة ٤٧٢هـ، وكان الأذفونش يراقب الأحداث، ويتحين الفرص، فتحرّكت أطماعه لحيازة أعمال ابن دي النون وحصونه، فانتهاز الفرصة، وراح يشتط في طلب الأموال الطائلة منه، ويلج عليه بالتعجيل بها، وأن ينزل له عن كثير من الحصون المنيعّة المتاخمة لمملكته، ولم يكن ابن ذي النون يملك غير الإذعان له، لخنوعه، واضطراب الأمر عليه، ولذا "فغر الطاغية أذفونش فمه على ثغوره المثغورة، فجعل وقته يطويها طي السجل للكتاب، وينهض فيها نهضة الشيب في الشباب، وابن ذي النون يلقيه أفلاذ كبده... وأذفونش -لعنه الله- لا يقنع منه بصيد العنقاء... بل كلفه إحضار الأبلق العقوق، ويسومه درك الشمس، ويطلبه برد أمس، فلما أكل الانفاق ثبج ماله، وأخذ الخناق يكظم احتياله... سما إلى معاقلة المنيعّة... عدد الأنام، ودروب الاسلام، فما راهنه منه عليه غلق، وما رام أخذه من يديه لم يدركه حتى مزق" (٨٨).

وراسل القادر أذفونش ملك قشتالة من مهرية في قونكة، واستعطفه لمناصرتة على أهل طليطلة، وذكره بفضل جده عليه، وعونه له في منازعاته مع أخويه، شانجة وغرسية على عرش قشتالة، حيث استضافه في طليطلة في بلاطه تسعة أشهر، حتى استرد عرشه، إذ تحول هذا الإحسان والجميل في نفس أذفونش جشعاً وطمعاً، فيما رآه من عز طليطلة وخياراتها، فاضمرها في نفسه، وحين استتصر القادر به خف سريعاً إليها بقواته، لتحقيق تلك التطلعات في القضاء على مملكة من أحسنوا إليه (٨٩). وتيقن آنذاك من ضعف أمراء الطوائف،

وانشغالهم في منازعاتهم وحروبهم فيما بينهم، وعجزهم عن مواجهته، فاستدعى المتطوعين والمرتزقة من البشكنس ❖ والجلائقة ❖، وبلاد الفرنج، فتجمعت لديه جيوش جرارة، شق بها بلاد الأندلس، وراح يقف على كل مدينة في طريقه، فيفسد ويخرب، ويقتل ويسبي، وبعث إلى كل قاعدة من قواعد الأندلس جيشاً لحصارها، والتضييق عليها، ولم يعد يقنع من أمراء الأندلس بالجزية والأموال، وإنما أصبح يروم أخذ القواعد والمعقل (٩٠).

وطمع في الاستيلاء على طليطلة، قاعدة الثغر الأوسط المنيع، وعاصمة القوط القديمة التي تذكره بأمجاد أجداده، قبيل الفتح الاسلامي، فبدت له ثمرة يانعة، دانية القطوف، وهي في يد القادر الضعيف المتخاذل، بعد أن أصبح في يده شبه أسير، فسار معه أذفونش بجيوشه إلى طليطلة، فلما علم المتوكل بن الأفطس بقدومه جد في اقتناص كل ما يستطيع حمله من أسلاب القادر، من أثاث وفراش وأنية وسلاح وكتب وغيرها، ثم فر من المدينة إلى حاضرتة بطليوس، بعد أن قمش ما أبقتة الفتنة من فرش فخم، وسرادق ضخمة، وأنية وكتب وترك المدينة وأهلها لقدرهم "كالسفينة خانتها الريح، والجسد بان عنه الروح، بين ناب أذفونش وظفره، يقدح لهم نار الفتنة عن حجره، ويربهم الموت في أهول صوره..." (٩١).

وتشير بعض الروايات إلى أن القادر قد اتفق سراً مع الأذفونش أن يحكم طليطلة باسمه، وأن يسلمها إليه متى شاء، بعد أن يحصل من أهلها جملة أموال تعهد له بدفعها، على أن يعاونه الأذفونش على استرداد بلنسية، لتكون مقر إمارته، ويؤكد ابن بسام ذلك، بقوله "وكان عاقده ابن ذي النون أنه إذا ضرح ❖ قذاها، وأماط أذاها، واقضت دينها، خلى بينه وبينها، هذا ما أضمر" (٩٢).

ويشير ابن عذاري إلى ذلك في حديثه عن مساعدة الأذفونش للقادر في أخذ بلنسية بقوله "وقيل بل كان القادر قد اشترط على الفنش أن يملكه بلنسية، فوفى له الفنش بشرطه، وأدخله بلنسية قهراً... سنة ثمان وسبعين وأربعمائة" (٩٣). وكان ما أظهره القادر للملا من ذلك الاتفاق، أنه تعهد للأذفونش بأن يؤدي إليه جملة حصون منيعة، وأموالا طائلة، لقاء تلك المساعدة "فأما الذي أظهر، فإنه وعده أداء جملة من المال، لا تفي به مدة الإقبال، ولا إرخاء الحال، راهنه بها أبناء الأمجاد، وبقايا معاقلة الأفراد" (٩٤) وكان من نتيجة فعلته هذه أن ألقى أهل طليطلة بأيدي الصغار، على حين أيقنوا بالبوار، وضافت عليهم أنشطوة الحصار... (٩٥).

ودخل القادر طليطلة سنة ٤٧٤هـ في حمى الأذفونش وجنده من النصاري، ومزقوا أهلها شر ممزق، وجلس على عرش مضطرب، وسادت الفوضى المدينة، وأهلها في كدر ووجوم، لما يتوقعونه من سوء المصير، ثم شرع ابن ذي النون يبطش بأهل طليطلة، ويصادر أموالهم، ويذل أكابرهم، ويثير الفرع والرعب في نفوسهم، ليحصل منهم ما ضمنه من الأموال الطائلة



للأذفونش، حيث رهن له معاقله وحصونه للوفاء له بذلك، ولذا "أخذ ابن ذي النون أهل طليطلة لحين استقراره فيها، بفك تلك المعاقل، وأداء ما كان ضمن لأذفونش من الأموال الجلائل، فضرب مدبرهم بمقبلهم، وولى آخرهم كبر أولهم، حتى طمع فقيرهم في غنيهم، واجترأ ضعيفهم على قويهم، وأصبح الرجل منهم يرتاع من ظله، ويلتفت، وإنما هو بين أهله... (٩٦).

وتيقن الفونسو السادس أن الفرصة قد أصبحت مهيأة له للإستيلاء على مملكة طليطلة، إذ خضع له معظم ملوك الطوائف بأداء الجزية، وخضع له أقواهم، المعتمد بن عباد❖، وتعهد له بأداء جزية كبيرة، وتآمر معه أن يترك يد الأذفونش طليقة في حملاته على طليطلة، مقابل أخذ المعتمد الجزء الذي يلي حدود مملكته من أراضيها الجنوبية، وأن يساعده على خصومه من المسلمين(٩٧). ولذا لم يجرؤ أحد منهم سوى المتوكل بن الأفطس على محاولة الوقوف في وجهه، وشجعه على انتهاز الفرصة تناحر أهل طليطلة فيما بينهم، وكان له حزب مناصر قوي بينهم من العملاء والخونة، فأخذ يشن الحملات والغزوات المتتالية على أراضيها لحسابه حيناً، وبحجة معاونة حليفه القادر على معارضيه حيناً آخر، وبدأ حملاته سنة ٤٧٤هـ، حين استنصره القادر لاسترداد عرشه، ودامت حملاته أربع سنوات، فاجتاحت قواته سائر أعمالها وسهولها، وخربت الضياع والبساتين، وانتهبت الأموال، وسبت الذرية، وعاث على راحته في أرجائها، دون أن يزعجه أحد، حتى نجح في تجريد طليطلة من وسائل الصمود والمقاومة، وقضى على وسائل دفاعها، واستنفد مواردهم من المؤن والأموال، وأنهك أهلها نفسياً. وأثار الرعب واليأس في نفوسهم وقلوبهم، وعدم أهلها كل مصدر للعون من أمراء الطوائف المتخاذلين، فازداد وضع أهلها حرجاً وضيقاً يوماً بعد يوم، إذ مضى الفونسو بحملته الصليبية في قوات من قشتالة وليون، والمتطوعة من أراجون وفرنسا وغيرها، واستمر الأذفونش يستبيح أعمالها بالتخريب والقتل والسبي والنهب "وانكدر أذفونش على طليطلة، ينتسف مرافقها، ويقعد لجالية أهلها ثاياتها ومضايقتها، يأسر ويقتل، ويحرق ويمثل... وبلغت القلوب الحناجر"(٩٨).

وازداد كلب الأذفونش على طليطلة حين رأى انفرادها بأهلها، وألح عليهم بالحصار، فكثرت فيهم القتل والجلاء والتخريب، وغلت الأسعار، واحتج بمعاونة القادر على الثوار، ورتب ذلك مع عملائه المواليين له من أهلها "وقضى الطاغية أذفونش -قصمه الله- قضاءه، من استباحة الحريم، واستئصال الراحل والمقيم، وإتلاف الموجود والمعدوم..."(٩٩).

ونجح في خنق المدينة ببطء، بعد أربع سنوات من الغارات المستمرة على أعمالها، وتخريب ضياعها، ونهب زروعها، وممارسة القتل والسبي في إرهاب أهلها، كل ذلك بالتواطؤ مع جماعة من أهلها، وتخاذل من ملوك الطوائف، وصاحبها القادر ممعن في الفتك بأهلها، ومصادرة

أموالهم، ليرضي جشع حليفه الأذفونش، فتمكنت جيوش الأذفونش قبيل شتاء سنة ٤٧٧هـ من اختراق بعض دفاعات المدينة المنهكة، والاستيلاء على "المنية المسورة التي كان المأمون يحشد إليها كل حسن، وبياهي بها جنة عدن، فاتخذ عروشها مرابط لأفراسه، وإيواناتها ملاعب لأراذله وأرجاسه..." (١٠٠).

واتخذ قصورها المشهورة ببذخها وفخامة حدائقها مقراً لإقامته وقيادته، حين هجم عليهم الشتاء، وهم على تلك الحال في حصار المدينة، وانقطعت الإمدادات عن جيوش الأذفونش من بلاده، وكانت فرصة موالية لانقاذ المدينة. لو شاء أي من أمراء الطوائف التحرك لانقاذها، وعلى العكس من ذلك راحوا يمدون جيوشه بالمؤن وما يحتاجه في ذلك الحصار، على حين خذلوا أهلها، فبدلاً من أن ينتهز هؤلاء الأمراء فرصة حلول الشتاء، وانقطاع الأذفونش عن مصادر إمداده من مملكته، وينجدون أهل طليطلة، لازاحة هذا الخطر الداهم عن كاهلهم جميعاً، راحوا يتهافون عليه بخنوع وذل مهين، ويبذلون له كراماتهم، يرجونه أن يقبل منهم الأموال والإمدادات، لنيل رضاه فقد "هجم الشتاء فمنعه من ميرة تأتيه، أو مدد يواتيه... ولا مدد له. إلا ضعف من كان ييازائه، ولولا اهتبال ملوك الطوائف بإقامة مرافقه، وإصفاؤهم إلى هدر شقاشقه، لطار شعاعاً، وذهب ضياعاً" (١٠١).

فشحت أقواتهم، واشتد الأمر بهم سوءاً، فطفقوا يستصرخون أمراء الطوائف، فلم يجدوا معيماً ولا منقذاً، واضطر أهلها وزعماءها من القادة والمشايخ بالاتفاق مع القادر، إلى إرسال وفد إلى ملك قشتالة الأذفونش، يحدثه في أمر قبول الصلح والجزية منهم، واستقبلهم وزيره ششند ♦ واستمع إليهم، ورفض مفاوضاتهم على الصلح، وأمرهم بتسليم المدينة للأذفونش على شرطه، ثم أدخلهم إلى الأذفونش، فأفضوا إليه أنهم ينتظرون العون من بعض ملوك الطوائف، فأنبهم، وسخر منهم، وأوضح لهم أن أحداً من هؤلاء المخذولين لن ينصرهم، واستدعى سفراءهم الذين يقفون منذ مدة على بابه بإذلال، يتوسلون إليه أن يقبل منهم الأموال والهدايا، ليرضى عن أمرائهم الذين يبذلون الولاية والطاعة له، وهو يستنكف عنهم، ويشتط في إذلالهم بمطالبه القاسية، فخرجوا من عنده، وقد أسقط في أيديهم، وفقدوا كل أمل بالنصرة، وأيقنوا سوء المصير، وتحطمت الآمال، وكل المحاولات بعقد صلح مع الأذفونش، سواء من جانب القادر المقر بطاعته، والحكم باسمه، أو من جانب زعماء المدينة "وظفق أهل طليطلة يستصرخون من حولهم، ويعملون في ذلك فعلهم وقولهم، فيعكفون على طلل بائد، ويضربون في حديد بارد..." (١٠٢).

ولم يخف على عقلاء المسلمين في الأندلس أن الموقف عصيب، وأن سقوط طليطلة، أحد قواعد الإسلام العظمى في الأندلس بيد القشتاليين. هو نذير بسقوط الجزيرة بكاملها، وإنما هو انهيار الحجر الأول، الذي يؤذن بانهايار صرح الوجود الإسلامي كله هناك، فبادر جماعة

منهم إلى الحث على اجتماع الكلمة، ولم الشعث لمدافعة الخطر المشترك الداهم، ونهض القاضي العلامة أبو الوليد سليمان بن خلف التجيبي الباجي❖، بإشارة من المتوكل بن الأفطس، فطاف في الإمارات والحواضر الأندلسية، منذرا ومحذرا من عواقب الفرقة والتناحر، ويهيب بالمسلمين وأمرائهم إلى نجدة طليطلة، وفك الحصار عنها في بدايته، وإلا فسوف يسحقهم العدو جميعاً دولة بعد أخرى، حتى يخرجهم من تلك الديار، فقام بالمهمة ولم يدخر وسعاً في نصحتهم ووعظهم، ومضى يحاول أن يصل "ما أنبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون، لو صادف اسماعا واعية، بل نفخ في أعظم ناخرة، وعكف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره، لقيه بالترحيب، وأجزل حظه بالتأنيس والتقريب، وهو في الباطن يستجمل نزعتة، ويستثقل طلعتة"(١٠٣).

غير أنه كان يداخل الرؤساء ويقلل أعطياتهم، فضعف ذلك أثر دعوته أن تبلغ قلوب الناس أو الأمراء، وألح القاضي عياض إلى ذلك بأنه "كثرت القالة في القاضي أبي الوليد لمداخلته للرؤساء"(١٠٤) ولكن هذه الجهود ذهبت سدى، لغلبة الأطماع والأهواء الشخصية على ملوك الطوائف، رغم ادراكهم ما يضمنه المستقبل لهم من الولايات.

ولما يئس أهل طليطلة من إغاثة المسلمين في الأندلس لهم، وكان الجوع والضعف أضنى عامة الناس، فخارت عزائمهم عن مواصلة المدافعة، فاستسلموا لأذفونش بعد مقابلته بثلاثة أيام، بعد أن صمدوا للحصار تسعة أشهر، ودخل ملك قشتالة طليطلة "وخلوا بينه وبين البلد ثلاثة أيام من ذلك، ودخل طليطلة على حكمه، واثبت في عرصتها قدم ظلمه..."(١٠٥).

ويلخص الأب بيدرا ماريانا، وهو من أقدم المؤرخين الذين كتبوا عن سقوط طليطلة، شروط التسليم على النحو التالي: "أن يسلم القصر، وأبواب المدينة، والقناطر، وحديقة الملك... إلى الملك الفونسو، وأن يذهب الملك المسلم حراً إلى مدينة بلنسية، وفقاً لرغبته، وأن يسمح بالحرية لمن شاء أن يتبعه من المسلمين، وأن يأخذوا معهم أموالهم. وأما الذين يقيمون في المدينة، فلا تؤخذ منهم أمتعتهم ولا أملاكهم، وأن يبقى المسجد الجامع بأيدي المسلمين، يقيمون فيه شعائهم، وألا تفرض عليهم ضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه للوكلهم، وأن تجري عليهم أحكام شريعتهم، وعلى يد قضائهم المسلمين دون غيرهم، وأن يقسم الطرفان، كل وفق تقاليد، على احترام هذه العهود، وأخيراً أن يقدم أهل المدينة لفيضا من أعيانهم كرهائن"(١٠٦)، وتظاهر ملك قشتالة بقبولها، وتعهد باحترامها. وفي صفر سنة ٤٧٨هـ دخل الفونسو السادس طليطلة، ونزل بقصرها المشهور، وهو القصر الذي نزل به أيام محنته في ضيافة المأمون بن ذي النون، واتخذ بلاطاً له، وشرع من فوره باتخاذ طليطلة عاصمة لمملكة قشتالة، كما كانت عاصمة القوط من قبل، وجعلها مقراً رئيسياً للكنيسة في مملكته، واتخذ لنفسه لقب الإمبراطور(١٠٧).

وولى وزيره شَشْنَنْد على تدبير أمور المدينة، وكان من النصارى المستعربين الدهاة، الذين عملوا من قبل في بلاط المعتضد بن عباد، ثم نزح إلى جليقية، وخدم ملكها فرناندو، ثم ابنه الفونسو هذا، وأظهر مع أهل طليطلة سياسة المودة واللين، فاستمال قلوب الكثيرين من المسلمين، فأثروا البقاء تحت حكم الأذفونش، ونفروا من ملوك الطوائف، الذين تخلوا عنهم، ونجح من خلال هذه السياسة في تحويل عدد كبير منهم إلى النصرانية، فأذهل ذلك باقي المسلمين في الأندلس، ويصف ابن بسام هذه المصيبة بقوله "وولى شَشْنَنْد تدبير طليطلة، فهون عليهم الرزية، وحبب إليهم إعطاء الدنية، بما أراهم من سهولة مرامه، وبسط فيهم من عدل أحكامه، حتى استمال قلوب أعلامها، وحبب للتصير إلى عامة طغامها، وفجأ المسلمين من اختلاف أهوائهم، وتنصر سفهائهم - ما ضاقت عنه صدور الأيام، واضطربت له قواعد الاسلام" (١٠٨).

وأشار ششنند على الأذفونش أن يُبقي طليطلة عامرة بأهلها، وأن يلتزم مؤقتاً بالاعتدال والروية في معاملتهم، ويستميلهم إليه، ويُبقي عليهم ابن ذي النون، يحكم باسمه، فقال "لست تجد من يعمرها، ولا تطفر بعامل أطوع من ابن ذي النون، يديرها... واخفض جناحك لأهلها، واستجلب جاليتها بما تمد من ظلها" (١٠٩).

ونصحه بأن يرفق بملوك الطوائف، لأنهم عماله المطيعون، وأن لا يلح عليهم، ويشتط بمطالبه، فيضطروهم إلى التوجه إلى المرابطين، فيفسدوا عليه أمره، وقال له "ولا تلح على ملوك الجزيرة، فلست تستغني عنهم، ولا تجد عمالاً أطوع منهم، فإنك إن أبييت إلا الإلحاح عليهم، والتسرع بالمكروه إليهم، نفرتهم عن ذراك، وأحوجتهم إلى مدخله سواك" (١١٠).

ولكن هذا الظفر العظيم والسهل نسبياً، الذي أحرزه الأذفونش على مملكة طليطلة أصابه بالغرور، وزاد في غطرسته، فظن أنه يستطيع أن يتصرف مع ملوك الطوائف بيد مطلقة على هواه، فأخذ يغلو في إذلالهم، ويشتط فيما يطلبه منهم، ليتخذ ذريعة للاستيلاء على المدن والحصون من أعمالهم، فاستولى على سائر أراضي مملكة طليطلة شمالي نهر التاجة، وتتضمن ثمانين موضعاً بها مساجد غير القرى والضياع، بعد أن استولى حليفه ابن عباد على الأراضي جنوب نهر التاجة، ووصف ابن بسام عتوه وتجبره وغروره أثناء ذلك بقوله "وعتا الطاغية أذفونش - قصمه الله - لحين استقراره بطليطلة، واستكبر، وأخل بملوك الطوائف في الجزيرة، وقصر، وأخذ يتجنى ويتعجب، وطفق يتشوق إلى انتزاع سلطانهم، والفراغ من شأنهم، ويتسبب، ورأى أنهم قد وقفوا دون مدا، ودخلوا بأجمعهم تحت عصاه" (١١١).

ثم أخذ يركب هواه، وعقد العزم على نكث وعوده مع أهل طليطلة، وتحدى مشاعرهم، فعين لرئاسة أسقفية طليطلة الأسقف برنار الفرنسي، الصليبي المتعصب، بنفوذ الملكة كونستانس، وهي فرنسية بروجونية الأصل، فتعصب على المسلمين وبغى عليهم، ودبر بتحريض

من الملكة المتعصبة نكية أخرى للمسلمين في المدينة، وطالب بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، بسبب ما كان يتركه هذا الجامع من غصة في نفوس النصارى لعظمته وروعته، وخشي ششند أن يثير ذلك سخط المسلمين، فيجر عليهم القلاقل والمتاعب، ليس في طليطلة وحسب، وإنما قد يثير عليه مسلمي الأندلس، وعبثا حاول إقناع الفونسو، أو إقناع الأسقف، بالمحافظة على العهود مع المسلمين، ومما قاله "إنك إن فعلت، أوغرت الصدور، وأبطلت التدبير، وسكنت من نشط، وقبضت من انبسط..." (١١٢).

وما كاد يمضي شهران على التسليم، حتى اقتحم الأسقف وجمع من الفرسان الجامع، وحطموا محرابه، وأمر بإقامة الهيكل، وعقد فيه في اليوم التالي قداسا حافلا، فهاج مسلمو المدينة وثأورا لذلك، إلا أن الحامية القشتالية سيطرت عليهم، فاضطر الملك الفونسو للتظاهر بالسخط على الأسقف والملكة، وزعم أنه سيعاقبهما بالحرق، لامتنصاص سخط المسلمين، فالتمسوا منه العفو عنهما، آملين أن يرد عليهم المسجد، ولكن أملهم خاب، إذ استمر العمل على تحويله إلى كنيسة جامعة، تكون مركزا لاسقفيتهم، وفي ١٥ شعبان سنة ٤٧٨هـ دشّن الجامع كنيسة إلى الأبد، في حفل كبير رعاه الملك الفونسو، وحضره الأشراف، ورجال الدين، وانتخب فيه الراهب برنار مطرانا (١١٣).

وكان حدث تحويل الجامع إلى كنيسة من أكثر الأحداث إيلاماً في نفوس المسلمين ومشاعرهم، إذ كان «تغيير المسجد الجامع بها خاتمة النواثب، ونكية الشاهد والغائب» (١١٤).

وكان الشيخ أبو عبدالله محمد بن عيسى المغامي ❖، آخر مسلم صلى في جامع طليطلة، وكان قد "اعتمده في ذلك اليوم ليتزود منه، وقد أطاف به مرّدة عفاريتة، وسرعان طواغيته، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ، فكلما قالوا له عجل، أشار هو إلى تلميذه أكمل، ثم قام ما طاش ولا تهيب، فسجد به، واقترب، وبكى عليه مليا وانتحب، والنصارى يعظمون شأنه، ويهابون مكانه، ولم تمد إليه يد، ولا عرض له بمكره أحد" (١١٥).

أما الأمير المنكود ١ لقادر يحيى بن ذي النون، فقد غادر المدينة بأهله، وأمواله، وحاشيته، واستقر أياما بمحلة ملك قشتالة، واضعا نفسه تحت حمايته، قابعا بحسرتة ومعرتة، وقد كان يرغب بالتوجه إلى بلنسية، لاتخاذها قاعدة جديدة للملكة، إلا أن أهلها خرجوا عن طاعته، فتوجه إلى حصن قونكة فنزل به، وتكفل الأذفونش أن يمكنه من بلنسية، لأنها إذا خلصت للقادر الضعيف فستكون رهن تصرفه يملكها متى شاء (١١٦).

ويصف ابن بسام هيئة القادر حين خرج عن طليطلة ذليلا بعبارات لاذعة تملؤها الزايرة والشماته، ويقول "خرج ابن ذي النون خائبا مما تمناه، شرقا بعقبى ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه، والسماء تود لو لم تطلع نجما إلا كدرته عليه حتفا مبيدا، ولم تتشء عارضا، إلا مطرته فيه عذابا شديدا، واستقر بمحلة أذفونش مخفور الذمة، مزال

الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونه حرمة ستر ولا حجاب" (١١٧).

فكان خروجه من طليطلة على أقبح صورة، وأفظع سيرة، لجنايته على مسلمي مملكته، وتفريطه في نكبتهم، ويروي ابن بسام عمن رآه يومها و"بيده اضطراب، يرصد فيه أي وقت يرحل، وعلى أي شيء يعول، وأي سبيل يتمثل، وقد أطاف به النصاري والمسلمون، أولئك يضحكون من فعله، وهؤلاء يتعجبون من جهله" (١١٨).

ولا يتمالك لسان الدين بن الخطيب أن يكتم شماتته بالقادر، ومن حذا حذوه من أهل طليطلة بالتخاذل والخيانة، ويقرر أن ما حل بهم عقوبة من الله لهم، بسبب نفاقهم وممالأتهم للأعداء، ويقول "واقترض الطاغية الوعد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلك الذمم، واستؤصلت الرمم، ونفذ عقاب الله في أهلها، جاحدي الحقوق، ومتعودي العقوق، ومقيمي أسواق الشقاق والنفاق، والمثل السائر في الآفاق" (١١٩).

وبقي ابن ذي النون في قونكة عند أشياعه من بني الفرج، حتى سنحت له الفرصة بدخول بلنسية، بعد وفاة صاحبها أبي بكر بن عبدالعزيز سنة ٤٧٨هـ، واستولى عليها بمساعدة جند النصاري مدة عامين، فثار عليه قاضيه ابن جحّاف ❖ بعد عبور المرابطين إلى الأندلس، فتخلص من القادر يحيى بن ذي النون، أو قتله أقارب ابن الحديدي طلباً بثأره سنة ٤٨٥هـ (١٢٠).

وكان لسقوط طليطلة بيد النصاري سنة ٤٧٨هـ وقع مؤلم في نفوس المسلمين، ومحنة لا تطاق، وأصابهم الهلع والفرع لمصابها، وقد كانت من أمنع مدن الأندلس وأحصنها، وتلقوا خبر سقوطها بحيرة وذ هول من خذلان أمراء الطوائف لأهلها، وأدرك الكتاب الأندلسيون الواقعون أنه لولا تخاذل ملوك الطوائف، وتآمر بعضهم مع النصاري ضد المسلمين، ما ضاعت طليطلة ولا غيرها من معاقل المسلمين الحصينة (١٢١)، وأوضح ابن بسام ذلك بقوله "وحصلت مدينة قورية وسرية أولا في يد العدو، إلى عدة حصون وقلاع، كلها في غاية من الحصانة والامتناع، ثم لم يزل التخاذل يتزايد، والتدابير يتساند، حتى حلت الفاقة، وقضيت القضية، وتعجلت البلية بحصول مدينة طليطلة في أيدي النصاري وذلك سنة ثمان وسبعين، وهي من الجزيرة كنقطة الدائرة، وواسطة القلادة.." (١٢٢).

ويعلل ابن القصيرة تناول النصاري على المسلمين وجراتهم على ديارهم، باستدعاء أمراء المسلمين لهم بقوله "...لأن النصاري لما اطلعوا على عوراتهم زحفوا بطرائفهم إليهم" (١٢٣).

فقد غلبت على نفوسهم الأثرة، والأهواء الشخصية الأنانية، وقد ضعف أمام ذلك وازعهم الديني أو الانتماء لتلك الديار، أو الرعاية لمصالح رعيتهم، بل نسوا في كثير من الأحيان حتى اعتبارات كبريائهم وكرامتهم، واستساغوا لأنفسهم محالفة أعدائهم من النصاري على بعضهم

البعض، لاقتطاع مدينة أو حصن من مملكة شقيقه المسلم، أو التكيل بأحد الأمراء المسلمين المجاورين، وقد صور ابن حزم استهتارهم بكل القيم الإسلامية أو العربية في سبيل مصالحهم الذاتية، حتى غدت الغاية تبرر الوسيلة، مهما سفلت أو قذرت، فيقول "والله لو علموا أن في عبادة الصليان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى، فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أسارى. إلى بلادهم، وربما يحمونهم عن حريم الأرض، وحشرهم معهم آمنين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا، فأخلوها من الاسلام، وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفا من سيوفه" (١٢٤).

فقد أدى جشع هؤلاء الأمراء ولامبالاتهم إلى انهيار المعايير الأخلاقية عند بعضهم في بعض المواقف، فلا غرابة أن يتخلوا عن نصره طليطلة ويخذلوا أهلها. وكان أعظم هؤلاء الملوك ذنبا في مأساة طليطلة وخذلانها المعتمد بن عباد، لقوته وقرب مملكته منها، ولتأمره وتحالفه مع عدو المسلمين الأذفونش نفسه على احتلالها، ولم يلبث أن أدرك سوء عاقبة ما فعل، وفداحة الخطأ الذي ارتكبه بحق المسلمين من أهل طليطلة، ومن رعيته وبحق نفسه، إذ أفاق مذعورا على طرقات رسل الأذفونش، تأمره بدفع أموال طائلة، وتسليم حصون وأعمال منيعة له، وفوق ذلك إهانته ومسخ كرامته وكرامة المسلمين، بالطلب إليه أن يسمح لزوجة الأذفونش بالولادة في مسجد قرطبة الجامع، وأن تنزل في قصور الزاهرة، فاستشعر أن دوره قد جاء، لينال مصير أهل طليطلة، الذين خذلهم، فقال يعبر عن ندمه على خذلانهم، في رسالة بعث بها إلى الأذفونش، الذي عيّر بفعلته، وحقّره، فقال " نسال الله ... المغفرة فيما اتيناه في أنفسنا (وفي المسلمين)، من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم" (١٢٥).

وأخذ الإحساس بالحمية والأنفة ابن عباد ورد على مطالب الأذفونش بعنف، وقتل رسله، فانحدر إليه بجيوشه "يخضل شوكته، ويخطب مملكته، ويطلق حماءه" (١٢٦).

ويش بن عباد وغيره من ملوك الطوائف بالنجاه من هذا العدو، أو مواجهته، فأخذت هذه النكبة تؤثر على تفكير هؤلاء الملوك المتناحرين، وإحساسهم بالعاقبة وسوء المصير، إن بقوا على حالهم من التناحر والخصومة، واتفقوا على توجيه أنظارهم إلى إخوانهم المرابطين في العدو المغربية، يلتمسون غوثهم ونجدهم، ويصف ابن القصيرة هذا التحول في تفكيرهم وشعورهم بالمسؤولية تحت ضغط الأذفونش وقسوته وتغنته، مما ملأ قلوبهم خوفاً ويأساً، ومشاعرهم اضطراباً وقلقا، فقال يصور حالهم في رسالة له يشيد بالمرابطين، ويمجد بطولاتهم في وقعة الزلاقة "ولما لم يبق إلا نفس خافت، ورمق زاهق رأى المسلمون أنهم بالجزيرة على طرف، وفي سبيل تمام وتلف، استصرخوا أمير المسلمين، وناصر الدين، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين -رحمه الله - فأجاز إلى جزيرة الأندلس، في صدر سنة تسع وسبعين، وبادر بنفسه وجماعته عجالا، وتداركوها ركبانا، ورجالا، فكان من الفتح يوم الجمعة

ما كان، وصرع الله عبدة الطواغيت... (١٢٧).

فقد ثار المسلمون في هذه الواقعة سنة ٤٧٩هـ لنكبة طليطلة، فاستردوا ثقتهم بأنفسهم، ووضعوا حدا لأطماع الأذفونش، وحموا الوجود الاسلامي هناك لقرون بعدها، وأصبح "الاسلام سعيدا، والزمان حميدا" (١٢٨)، وآذنت هذه الواقعة إثر نكبة طليطلة بتحول سياسي جذري في الأندلس، إذ آل الأمر بعدها إلى سيطرة المرابطين على أمور الأندلس وإتباعها لدولتهم.

ولكن المسلمين فشلوا في استثمار نتائج هذا النصر، والتوجه مباشرة إلى طليطلة واستردادها، بعد أن قضوا على معظم قوات النصارى في الزلافة وحاولوا سنة ٥٠٣هـ استعادتها، وتمكنوا من حصارها زمن الأمير علي بن يوسف، وضيقوا الخناق على أهلها مدة "ثلاثة... أيام... فساعت طنون أهلها على ما هي عليه طليطلة من الحصانة والمنعة" وتمكنوا في الوقت نفسه من استرداد سبعة وعشرين حصنا من أحوازها، إلا أنهم فشلوا في استرداد طليطلة نفسها، فأذن ذلك بضيايعها من حظيرة الاسلام إلى الأبد (١٢٩).

يتضح مما سبق أن الكتاب الأندلسيين، قد عالجوا هذه المحن في كل صورها، وأبعادها وعناصرها العقيدية والبشرية، والوطنية، والحضارية، وخلدوا مشاعرهم ومشاعر معاصريهم في الحزن والألم، وسجلوا أحاسيسهم وانفعالاتهم في كل محنة وحدث أليم منها، وبدا للأندلسيين بعد كل نكبة من تلك النكبات أن حالهم المضعضعة، تؤذن أن مصيرهم آيل إلى السقوط والإنهيار، لعدم اتعاضهم واعتبارهم من نكبة إخوانهم المسلمين في هذه الحواضر، التي بدأت تتساقط في أيدي أعدائهم، الواحدة بعد الأخرى.

لقد أحس الكتاب بعمق الجرح، وجسامة المسؤولية، فحاولوا التسامي على جراحهم وآلامهم، والخروج من قوقعة الحزن واليأس، فاطلقوا صيحات مجلجلة، حاولوا فيها رآب الصدع بين المسلمين، ودعوا إلى معالجة أسباب هذا الخذلان والخنوع، من فرقة وشقاق وأنانية، وضعف إيمان، وتلون الأخلاق، فدعوا إلى الوحدة، وحذروا من أن المصير الذي واجه كل حاضرة من تلك الحواضر التي نكبت، سيواجهه جميع المسلمين في أرجاء الأندلس.

ولما يئس الكتاب من إمكان إصلاح حال أهل الأندلس، اتجهوا إلى إخوانهم المرابطين، يبسطون آمالهم لديهم على نصرتهم، وانقاذ مصير الأندلس، وتحاشي ضياعها على أيدي أمراء الطوائف، وأنهم أملهم الوحيد الذي يكسر شوكة هؤلاء الأعداء الحاقدين، ويعيد للمسلمين هناك كرامتهم وطمأنينتهم، ويؤمنهم في مستقبل وجودهم من النكبات والكوارث، التي حلت بإخوانهم في بريشت وطليطلة.

ان تطلع كتاب الأندلس ووجهائها إلى أمراء المرابطين المسلمين في المغرب، لإغاثتهم من



خطر النصارى أولا، ومن عبث ملوك الطوائف وفتنتهم ثانيا، لمؤشر واضح على مدى احباطهم، ويأسهم من إمكان إصلاح حال ملوك الطوائف، مما دفعهم إلى البحث عن الخلاص من هذا الوضع السياسي المتردي في خارج حدود جزيرتهم، وأدركوا أنهم مهما اوتوا من بلاغة القول وسحره، وسداد الرأي وجرأته، فلن يستطيعوا إقناع ملوك الفتنة بالتراجع عن صراعاتهم وانحرافاتهم، وجعلهم يتسامون في أفعالهم وسياساتهم عن الخلافات الفردية والفتن، ليفرغوا لرعاية شؤون المسلمين، والدفاع عنهم، ولم يكن معظم ملوك الطوائف يتسامحون مع من يجرؤ على قول الحق، أو يرفع صوته بالدعوة إلى الإصلاح والألفة عندهم، فقد كلفت هذه الدعوة عددا من الكتاب حياتهم، صنيع المعتضد بن عباد الذي بطش بالهوزني والبزلياني، وقد زج بعدد منهم في السجون أو شردوا عن أوطانهم بسبب بذلك.

وبالرغم من هذا فلم يتوقف الكتاب عن رفع عقيرتهم بالدعوة إلى نبذ الفرقة، ودق ناقوس الخطر، واستنهاض الهمم للجهاد، والدفاع عن ديار المسلمين، حتى وإن اضطروا إلى التوجه بها إلى الأمير يوسف بن تاشفين في المغرب المجاور، إذ نجحت صرخاتهم -إضافة إلى عوامل سياسية واقتصادية ودينية أخرى- في اقناع المرابطين بالعبور إلى الأندلس، وحماية الوجود الاسلامي هناك، وتغيير الأوضاع السياسية في الأندلس، واتباعها مباشرة إلى سلطة دولتهم في المغرب.

وقد قام الكتاب بدورهم خير قيام، حيث صوروا مأساة الإنسان المسلم، وما تعرض له من الإبادة في المجازر الفظيعة، أو إبادته حضاريا وإنسانيا باجباره على التنصر، أو مصادرة حريته بالأسر والسبي والاسترقاق، وإهدار كرامته باغتصاب أعراضه، وتعذيبه والتكيل به، كما صوروا مأساة المسلمين في أوطانهم التي بدأت تفتصب، ويُهَجَّر أهلها ليستوطنها أعداؤهم، أو العبث بضيعهم وإحراقها وتدميرها، إذا عجز الأعداء عن الاحتفاظ بها، لاضعافها أمام الهجمات اللاحقة، كما صوروا مأساة المسلمين في حضارتهم وعقيدتهم، حيث رأوا تدنيس مقدساتهم، وتحويل جوامعهم وصوامعهم إلى كنائس، أو تدنيسها بالإحراق، وقتل الأئمة، ونكبة الفقهاء، وتمزيق المصاحف، وإجبار من بقي من المسلمين تحت حكمهم على التنصر (١٣٠). نكبات لم يشهدا تاريخ المسلمين من قبل إلا بشبيهاها ومكملاتها في الحملات الصليبية على المشرق.

يلحظ أن معظم المادة النثرية التي استخدمها الكتاب الاندلسيون في معالجة موضوع النكبات، كانت من فن الرسائل، وغالبا ما كان هؤلاء الكتاب يبادرون من تلقاء ذاتهم وتفاعلهم مع الأحداث إلى إنشائها، وقد جاءت هذه الرسائل أقرب إلى المناشير والأوراق الطائفة منها إلى فن الرسائل الديوانية أو الأدبية، فاقسمت بالصدق الإنفعالي، والحدة الشعورية الخطابية، بسبب طبيعة الموضوع الذي عالجتة، كما يلحظ استخدام الكتاب نوعا آخر من النثر، هو النثر

الفني الإخباري، في كتب التاريخ والأخبار والتراجم والسير، صنيع ابن حيان، وابن خاقان، وابن بسام وغيرهم، وغالبا ما طغى المنهج الأدبي القصصي على هذا النثر، مما يميزه بالإثارة والجاذبية والحيوية، وهو أقل حدة من النوع السابق، ويلحظ غياب فن الخطابة عن هذا المجال، بالرغم من أنه من أهم دواعي ازدهاره، وقد يعلل ذلك بسياسة القمع والبطش، التي انتهجها ملوك الطوائف مع رعيّتهم، فخشي الخطباء بطشهم، أو ربما قيلت بعض الخطب ثم فقدت فيما بعد.

## الهوامش

١- عباس، إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٤، ١٧٧-١٨٧، والقيسي، فايز عبدالنبي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري. عمان دار البشير، ١٩٨٩، ١٧٧-١٨١، والطرايسي، أحمد إعراب: "الأصوات النضالية والإنهزامية في الشعر الأندلسي"، عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويتية، ١٩٨١، ١٢م، ١٤، ١٦٠.

٢- ابن خاقان، الفتح بن محمد القيسي (ت ٥٢٩هـ): قلائد العقيان، تح حسين خريوش، الزرقاء، دار المنار، ١٩٨٩، ١/١٧٤.

❖ أبو عبدالرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، أمير وكاتب من بلغاء الأندلس، خلف أباه على حكم مرسية، وظل عليها حتى انتزعها منه المعتمد بن عباد، ووضعه في السجن، ففر منه إلى كنف الوزير أبي بكر بن عبدالعزيز في بلنسية، وشهد نكبة احتلالها على يد السيد الكمبيطور سنة ٤٨٨هـ، فوقع في الأسر ثم فك أسره، ورحل إلى شاطبة، وعاد إليها بعد أن استردها المسلمون سنة ٤٩٥هـ، وعاش في عزلة حتى توفي سنة ٥٠٧هـ، ثم نقل جثمانه إلى مرسية سنة ٥٠٨هـ، وقد خصه ابن بسام بتأليف أسماء "سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر".

انظر ابن خاقان: القلائد ١/١٧٠-٢٠٦، وابن بسام، علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨-١٩٧٩، ق ٣/١م/٢٤-١٠٣، وابن الأبار، محمد بن عبدالله القضايعي (ت ٦٥٨هـ): الحلة السيرة، تح حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣، ٢/١١٦-١٢٧، والمقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٧، ١/٦٥٩-٦٧٠، ٦٧١-٦٧٠.

❖ أبو يحيى المعتصم محمد بن معن بن صُمّادح التجيبي، من بني صمّادح ملوك ألمرية، تولى الحكم فيها بعد والده سنة ٤٤٤هـ، وشيد فيها قصر الصمّادحية المشهور، كان حليماً وكريماً، فانتجعه أهل العلم والأدب، اشترك مع يوسف بن تاشفين في وقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ، ثم تمرد عليه مع باقي ملوك الطوائف، فحاصره جيش المرابطين في ألمرية وتوفي في أثناء الحصار سنة ٤٨٤هـ.

انظر ابن خاقان: القلائد ١/١٤٦-١٥٦، وابن بسام: الذخيرة ق ١/٢م/٧٢٩، وابن الأبار: الحلة السيرة ٢/٧٨-٨٨، وابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ): وفيات الأعيان، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٨، ٥/٣٩-٤٥، والمقري: النفح

١٢٢/٧-١٢٣.

❖ الْمَرِيَّة (Almeria) مدينة أندلسية، بنيت أيام عبدالرحمن الناصر وازدهرت في أيام المرابطين، الذين استولوا عليها من آل صمادح، وتقع على الساحل الشرقي، إلى الجنوب الشرقي من غرناطة، على مصب نهر أندرش في البحر المتوسط، قرب بجانة.

أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٦٣١/١، والحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥، ٥٣٧-٥٣٨.

❖ قلعة أيوب (Caltayud) مدينة حصينة بالثغر، شمال شرقي الأندلس، من أعمال سرقسطة، تقع بالقرب من مدينة سالم، وبينها وبين دروكة ١٨ ميلاً، على أحد فروع نهر إبرة، ولها عدة حصون، وبقيتها كثيرة الأشجار والمزارع.

أنظر ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩، ٣٩٠/٤، والحميري: الروض المعطار ٤٦٩.

❖ سَرْقُسْطَة (Saragosse) قاعدة من قواعد شرقي الأندلس الكبرى، وتعرف بالمدينة البيضاء، لغلبة الرخام الأبيض في بناء أسوارها ومبانيها. وتتصل بأعمال تطيلة، تقع على نهر إبرة، وهي قاعدة الثغر الأعلى، وحاضرة ملك بني هود، وظلت تحت حكمهم حتى استولى عليها القشتاليون سنة ٥١٢هـ.

أنظر ياقوت: معجم البلدان ٢١٢/٣-٢١٤، والحميري: الروض المعطار ٣١٧، وابن عبدالحق البغدادي، عبدالمؤمن (ت ٧٣٩هـ): مراصد الإطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، تح علي البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥، ٧٠٨/٢.

❖ وَشَقَّة (Huesca) مدينة حصينة قديمة، عليها سوران، من كور الثغر الأعلى الأندلسي، تقع على بعد خمسين ميلاً شرقي سرقسطة، وكان بها أكثر من ستين مسجداً.

أنظر ياقوت: معجم البلدان ٣٧٧/٥، والحميري: الروض المعطار ٦١٢، والمقري: النفح ١٦٦/١.

٣- ابن خاقان، القلائد ١٧٤/١-١٧٥، وأنظر ابن بسام: الذخيرة ق ٣/م ٨٦-٨٧.

٤- مفتاح، محمد: "مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي"، عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويتية ١٩٨١، م ١٢، ج ١، ١٨٦.

٥- ابن خاقان: القلائد ١٧٣/١-١٧٤، وأنظر ابن بسام: الذخيرة ق ٣/م ٨٦، والعماد، عماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ): خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، تح آذرتاش آذرنوش ورفاقه. تونس، الدار التونسية،

١٩٦٦-١٩٧٢، ٢/٣٦٤-٣٦٥.

- ٦- الطرايسي: الأصوات النضالية ١٥٦-١٧٠.
- ٧- الطرايسي: الأصوات النضالية ١٢٣-١٥٦.
- ٨- الحميري: الروض المعطار ٢٨٨-٢٨٩.
- ٩- مجهول (من ق٨هـ): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح سهيل زكار ورفيقه. الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩، ٣٥.
- ❖ أبو عبدالله محمد بن أيمن الوزير الكاتب، من أعلام النشر والنظم في الأندلس، استوزره المتوكل بن الأفضس، صاحب بطليوس، بعد أن صرف أبا الوليد بن الحضرمي عن خدمته. انظر ابن بسام: الذخيرة ق٢/م٢/٦٥٢، وابن سعيد، علي بن موسى المغربي (ت٦٨٥هـ): المغرب في حلى المغرب، تح شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥، ١/٣٦٦.
- ❖ المتوكل عمر بن المظفر محمد بن الأفضس، تولى حكم بطليوس بعد والده سنة ٤٦٠هـ، كان من أهل الرأي والحزم، استدعاه أهل طليطلة ليأخذها في الفتنة التي خلعوا فيها القادر، غير أنه جبن عن مواجهة الفونسو السادس حين قصده، ففر عنهم إلى بطليوس، وظل يحكمها حتى قتله المرابطون، واستولوا على مملكته سنة ٤٨٧هـ.
- انظر ابن خاقان: القلائد ١٢٠-١٤٥، وابن بسام: الذخيرة ق٢/م٢/٦٤٦. وابن الأبار: الحلة السيرة ٩٢، وابن سعيد: المغرب ١/٣٦٤، وابن خلكان: وفيات الأعيان ١٢٢/٧-١٢٣.
- ❖ يوسف بن تاشفين اللمتوني، أمير المسلمين، ومؤسس دولة المرابطين في المغرب والأندلس، استتجد به ملوك الطوائف، بعد سقوط طليطلة بيد الفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ، وطعمه في ضم باقي ممالك الطوائف، فغبر إليهم، وهزمه في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ، ثم عبر لجهاد نصارى الأسبان بعدها سنة ٤٨١هـ، وسنة ٤٨٣هـ، فخشيه ملوك الطوائف، وتآمروا مع الأسبان عليه، فخلعهم جميعاً ما عدا بني هود، وضم الأندلس مباشرة لسلطته في مراكش، وولي عليها أمراء جنده، وقد نجح في إيقاف المد الصليبي عليها حتى توفي سنة ٥٠٠هـ.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ق٢/م٢/٢٤١، وابن خلكان: وفيات الأعيان ١١٢/٧-١٣٠، والحميري: الروض المعطار ٢٨٧، والمقري: النفح ٤/٣٥٤-٣٧٧.
- ❖ قُورِيَة (Coria) من مدن الثغر الأدنى المنيع، من نواحي ماردة، تقع على نهر تاجة، شمال بطليوس، وهي معقل حصين يحيط بها سور منيع، تحيط بها أرض خصبة وبساتين فاخرة، انظر ياقوت: معجم البلدان ٤/٤١٣، والحميري: الروض المعطار ٤٨٥.
- ❖ سُرِّيَة (Soria) إحدى مدن الثغور الجبلية الحصينة، من أعمال سرقسطة، تقع على نهر

دويرة، شمال مدينة سالم، وقعت فيها معركة بين المنصور بن أبي عامر وغرسية بن فردلند ملك قشتالة، حيث أسره المنصور فيها سنة ٣٨٥هـ.

انظر ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/٣٠-٣١، وابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (ت٧٧٦هـ): كتاب أعمال الأعلام، فيمن بويغ قبل الاحتلال، من ملوك الإسلام، ق٢، تح ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦، ٦٨/٢-٦٩، والمقري: النفح ١٦/٨ (الملاحق).

١٠- الطرايسي: الأصوات النضالية ١٦٠.

١١- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٩، والحميري: الروض المعطار ٩٠.

❖ بَرَبَسْتَر (Barbastro) بفتح الباء الثانية وضمها، مدينة حصينة من أمهات مدن الثغور الأندلسية، تقع في ناحية وشقة، على أحد فروع نهر إبرة، إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، فتحها المسلمون زمن موسى بن نصير، واحتلها النورمان وحلفاؤهم سنة ٤٥٦هـ، ثم استعادها المقتدر أحمد بن سليمان بن هود سنة ٤٥٧هـ.

انظر ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٣، ١٧٩، وياقوت: معجم البلدان ١/٣٧٠، والحميري: الروض المعطار ٩٠-٩١، والمقري: النفح ٤٤٩-٤٥٣.

١٢- الحميري: الروض المعطار ٩٠، وانظر ابن عذاري، أحمد بن محمد، المراكشي (ت٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب، تح ليفي بروفنسال ورفاقه، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٠، ٢٥٣/٣.

١٣- ابن بسام: الذخيرة، ق٣/م١/١٧٩.

١٤- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨٥، والمقري: النفح ٤٤٩/٤. Is. de Las Cagigas: Los Mozarabes, Madrid, 1949, P. 453.

١٥- مجهول: الحلل الموشية ٧٦.

١٦- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٢٥، والحميري: الروض المعطار ٩٠، والمقري: النفح ٤٤٩/٤.

❖ النُورْمَانِيُّونَ: (Nordmani أو Norseman) هم سكان ولاية نورمانديا، شمال غربي فرنسا، وأطلق عليهم الكتاب المسلمون أسماء مختلفة، مثل الأردمانيين، والروذميين، والأردمليس، وأسموهم المجوس لأنهم كانوا يشعلون النار كثيرا، فظنوهم يعبدونها، وكانوا يغيرون على الأندلس من المنافذ البحرية والنهرية، فقد أغاروا بالمرابك سنة ٢٣٠هـ، زمن عبدالرحمن بن الحكم على اشبيلية، وشذونة، ولبله، وباجة، وأقلعوا إلى ديارهم من أشبونة، ثم أغاروا على وشقة، واستولوا على بربشتر، وسبوا أهلها سنة ٤٥٦هـ. انظر ابن

بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨١-١٨٥، والحميري: الروض المعطار ٩٠، والمقري: النفح ٤/٤٤٩، ١/٣٤٦.

١٧- الحميري: الروض المعطار ٩٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٣.

١٨- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨١، والمقري: النفح ٤/٤٤٩.

❖ المظفر يوسف بن سليمان بن هود، أمير لاردة وبريشتر، حكم بعد أبيه سنة ٤٣٨هـ، وقد طمع أخوه المقتدر بالله أحمد بن سليمان في مملكته، فجرت بينهما حرب أهلية، استعان فيها المقتدر بالمرتزقة من البشكنس والقطلان، وأحجم عن مساعدة أهل بريشتر، حين استولى عليها النورمان نكاية بأخيه، وانتهى الصراع باستيلاء المقتدر على ممتلكات المظفر وأسرهم.

انظر ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨١، والمقري: النفح ٤/٤٤٩، وعنان: محمد عبدالله، دول الطوائف، منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٩، ٢٢٤.

❖ المقتدر أحمد بن سليمان بن هود أمير سرقسطة، كانت بينه وبين النصارى حروب عظيمة، استرد فيها بريشتر سنة ٤٥٧هـ، بعد أن سبق وتخلى عنها سنة ٤٥٦هـ، واستولى على دانية من إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، توفي سنة ٤٧٥هـ.

انظر ابن سعيد: المغرب ٢/٢٣٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢/١٧١، والمقري: النفح ١/٤٤١.

١٩- ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٢٥.

٢٠- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨٢، وانظر المقري: النفح ٤/٤٤٩.

٢١- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨٢، وانظر ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٢٥، والمقري: النفح ٤/٤٤٩.

٢٢- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨٣، وانظر المقري: النفح ٤/٤٥٠.

❖ أبو مروان حيّان بن خلف بن حيّان، أديب ومؤرخ من أهل قرطبة، ولد سنة ٣٧٧هـ، وتوفي سنة ٤٦٩هـ، وهو صاحب كتاب المقتبس في أخبار الأندلس، نشرت منه أجزاء، وقد تحامل ابن بسام عليه، وقلل من قيمة كتابه، مع أنه من أوثق ما كتب عن فترة ملوك الطوائف، وقد نقل عنه ابن بسام مطولا في مواضع عدة. انظر ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨٢-١٨٤، وابن بشكوال، خلف بن عبد الملك بن مسعود الخزرجي (ت ٥٧٨هـ): كتاب الصلة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ١/١٥٣-١٥٤.

٢٣- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨٢، وانظر المقري: النفح ٤/٤٤٩.

٢٤- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٨٢، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٢٥، ومجهول: الحل

الملوشية ٧٦، والمقرى: النفح ٤/٤٥٠.

٢٥- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٣. وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٦، والمقرى: النفح ٤/٤٥٠.

٢٦- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٢-١٨٣، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٦، والمقرى: النفح ٤/٤٥٠.

٢٧- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٣، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٦، والمقرى: النفح ٤/٤٥٠.

٢٨- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٣-١٨٤، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٦، والمقرى: النفح ٤/٤٥٠.

٢٩- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٤، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٣.

٣٠- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٤-١٨٥، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٦، والمقرى: النفح ٤/٤٥٠.

❖ الوَخْش: الرديء، من كل شيء، والوَخْش من النساء، الرديئات.

انظر الفيروز آبادى، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت١١٧هـ): القاموس المحيط، مصر، مكتبة ومطبعة البابى الحلبي، ١٩٥٢، ٣٠٣/٢ (وخش).

٣١- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٢، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٥-٢٥٣، والمقرى: النفح ٤/٤٤٩-٤٥٠.

٣٢- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٥-١٨٦، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٥، والمقرى: النفح ٤/٤٥١.

❖ الحَزَّاور: جمع حَزَّورٍ: وهو الغلام الذى قد شب وقوى.

انظر الفيروز آبادى: القاموس ٨/٢ (حزر).

٣٣- الحميرى: الروض المعطار ٩٠، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٥٣، وياقوت: معجم البلدان ١/٣٧٠.

٣٤- الحميرى: الروض المعطار ٩٠.

٣٥- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٦، وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ٣/٢٢٦-٢٢٧. والمقرى: النفح ٤/٤٥١.

٣٦- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٦.

❖ شَرَوَى الشيء مثله.



- انظر الفيروز آبادي: القاموس ٤/ ٣٥٠ (شري).
- ٣٧- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٧-١٨٨، وانظر المقرئ: النفح ٤/٤٥١-٤٥٢.
- ❖ مُدْنِيَّتُهُ: يقصد الفتاة التي أدنت المال والجوهر الذي غنمه من أبيها إليهما.
- ٣٨- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٠، وانظر المقرئ: النفح ٤/٤٥٣.
- ٣٩- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٠، وانظر المقرئ: النفح ٤/٤٥٣.
- ٤٠- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٠-١٨١، وانظر ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٤. والمقرئ: النفح ٤/٤٥٣.
- ٤١- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨١، وانظر ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٤-٢٥٥، والمقرئ: النفح ٤/٤٥٣-٤٥٤، والبيت للقطامي، عمير بن شبيب: ديوان القطامي، تح إبراهيم السامرائي ورفيقه، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٠، ٣٤.
- ٤٢- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٩، وانظر ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٥، والمقرئ: النفح ٤/٤٥٣-٤٥٢.
- ٤٣- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٨-١٨٩، وانظر ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٥، والمقرئ: النفح ٤/٤٥٢.
- ٤٤- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٨٩-١٩٠، وانظر المقرئ: النفح ٤/٤٥٤.
- ❖ المعتضد بالله، أبو عمرو عباد بن محمد بن عباد، أمير إشبيلية، ووالد المعتضد، من أقوى ملوك الطوائف، وأشدّهم بطشا، وسع مملكته على حساب جيرانه المسلمين، بينما كان يذعن للنصارى في الشمال، ويدفع لهم الجزية، حكم إشبيلية من سنة ٤٢٣هـ وحتى وفاته سنة ٤٦١هـ.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ٢/٢٣-٤١، وابن الأبار: الحلة السيرة ٢/٣٩، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/٢٣، والمقرئ: النفح ٤/٢٢٧.
- ٤٥- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٧٣-١٧٤.
- ❖ أبو محمد عبدالله بن يوسف بن عبدالبر النمري، من أعلام الكتاب في عصره، كتب للمعتضد بن عباد، وأنشأ رسالة بليغة على لسانه في قتله ابنه اسماعيل، فخشى أن ينقم عليه بسببها، ثم وصى به ابن زيدون، فأوغر صدر المعتضد عليه، فرحل عن إشبيلية، وتقل بين ملوك الطوائف، ثم استقر في دانية، وكتب لأمرها علي بن مجاهد، ومنها كتب رسالته المشهورة على لسان أهل بريشتر حين نكبهم النصارى سنة ٤٥٦هـ، وظل يعمل رئيسا لديوان ابن مجاهد حتى توفي سنة ٤٥٨هـ، أنظر ابن خاقان: القلائد

- ٥٣٨-٥٤٤، وابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٢٥، وابن سعيد: المغرب ٤٣/٢، والعماد الأصفهاني: الخريدة ١٦٦/٢، ٤٥٩/٣.
- ٤٦- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٤.
- ٤٧- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٤-١٧٥.
- ٤٨- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٥.
- ٤٩- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٥-١٧٦.
- ٥٠- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٦.
- ٥١- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٧.
- ٥٢- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٧.
- ٥٣- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٦: ❖ عبس ٣٧، ❖ الحج ٢.
- ٥٤- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٦.
- ٥٥- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٨.
- ٥٦- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٨، ❖ يونس ٤٩.
- ٥٧- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٨-١٧٩.
- ٥٨- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٩. وقارن صفوت، أحمد زكي، جمهرة خطب العرب، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت، ٤٢٧-٤٢٩.
- ٥٩- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٧٣.
- ٦٠- عباس: عصر الطوائف والمرابطين ١٨٠، ١٨٢.
- ٦١- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٣.
- ❖ أبو حفص عمر بن الحسن الهَوْزَنِي، أديب فقيه من علماء الأندلس، رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨هـ، وأخذ عن علماء المسلمين هناك، ثم عاد إلى الأندلس، واستوطن مُرْسِيَّة، وكتب منها رسالة بليغة إلى صديقه الحميم المعتضد بن عباد، يحثه فيها على أنقاذ بربشتر، التي استولى عليها النورمان سنة ٣٥٦هـ، وكانت للهوزني مكانة عالية في إشبيلية، فخشي المعتضد جانبه، واستدرجه إلى إشبيلية سنة ٤٥٨هـ، ثم بطش به، وقتله بيده سنة ٤٦٠هـ.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨١-٩٤، وابن بشكوال: كتاب الصلة ٣٨٠/١. وابن سعيد: المغرب ٢/٢٣٩.
- ٦٢- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٤.

- ٦٣- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٤.
- ٦٤- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٤. ❖ البقرة ٢٥١. ❖ الحج ٤٠.
- ٦٥- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٥.
- ٦٦- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، وانظر المقرئ: النفح ٩٤/٢.
- ٦٧- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٢-٨٣، وانظر ابن بشكوال: كتاب الصلة ٢٨١/١، وابن سعيد: المغرب ٢٣٤/١.
- ❖ مُرْسِيَّة (Murcia) مدينة في جنوب شرقي الأندلس، بناها جابر بن مالك، بأمر من الأمير عبدالرحمن بن الحكم سنة ٢١٦هـ، على النهر الأبيض (نهر شقورة)، وهي قاعدة كورة تدمير، فخلفت تدمير وأصبحت الكورة تسمى باسمها، عليها سور فيه حصون منيعة. انظر ياقوت: معجم البلدان ١٠٧/٥، والحميري: الروض المعطار ٥٣٩، وابن عبد الحق البغدادي: مراصد الاطلاع ١٢٥٨/٣.
- ❖ إشبيلية (Sevilla) مدينة كبيرة بالأندلس، تقع على بعد ثمانين ميلاً غربي قرطبة، على نهر الوادي الكبير، وهي قديمة، بناها يوليوس قيصر، وبنى عبدالرحمن بن الحكم عليها سورا، اتخذها بنو عباد حاضرة لملكهم، وابتتوا فيها القصور الفخمة، والمتنزهات، فازدهرت أيامهم، حتى أخذها منهم المرابطون سنة ٤٨٣هـ. انظر ياقوت: معجم البلدان ١٩٥/١، والحميري، الروض المعطار ٥٨، وابن عبد الحق البغدادي: مراصد الاطلاع ٨٠/١.
- ٦٨- عباس: عصر الطوائف والمرابطين ١٨٠.
- ٦٩- مفتاح: الجهاد والاتحاد ١٨٣.
- ٧٠- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٧.
- ❖ قَلْهَرَّة (Calagurri = Calahorra) مدينة حصينة، من أعمال تَطْلَيْة، شرقي الأندلس، تقع على نهر إِبْرَة، وتعد من قواعد منطقة نَبْرَة (نافار)، وهي حسب التقسيمات القديمة من كورة طَرْكُونَة.
- انظر ياقوت: معجم البلدان ٣٩٣/٤. وابن عبد الحق البغدادي: مراصد الاطلاع ١١١٩/٣، والمقرئ: النفح ٣٨٣/١.
- ❖ الدَّرْبُ، كل مدخل إلى بلاد الروم، وجمعها دَرُوب. انظر الفيروز أبادي: القاموس ٦٨/١ (درب).
- ٧١- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٨٧.

- ٧٢- عباس: عصر الطوائف والمرابطين ١٨٢.
- ٧٣- ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٩، ٤٠٥.
- ٧٤- ابن بسام. الذخيرة ق ٢/م ١/١٩٠، وانظر ابن عذاري، البيان المغرب ٣/٢٢٧. والحميري: الروض المعطار ٩١، والمقري: النفح ٤/٤٥٤.
- ٧٥- ابن سعيد: المغرب ٢/١٢. وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٢٩، ٢٧٨، ٢٨٢. ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام ٢/١٧٨-١٨٤، وعنان، محمد عبدالله: دول الطوائف... القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٠، ٩٢-٩٨.
- ❖ طَلَيْطَلَة (Toledo) مدينة حصينة، على نهر التاجة، وهي قاعدة الثغر الأوسط الأندلسي، كانت عاصمة القوط القديمة، فتحها طارق بن زياد، واتخذها بنو ذي النون حاضرة لدولتهم، وابتتوا فيها القصور الفخمة والحدائق، وقد سقطت زمن القادر بيد القشتاليين سنة ٤٧٨هـ، واتخذوها عاصمة للمملكتهم.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ق ٤/م ١/١٦٤، وياقوت: معجم البلدان ٤/٣٩، والحميري: الروض المعطار ٣٩٣.
- ❖ المأمون، يحيى بن ذي النون، أشهر أمراء بني النون في طليطلة، عظم سلطانه بين ملوك الطوائف، دخل في صراع مرير مع سليمان بن هود صاحب سرقسطة، واستعان كل منهما على صاحبه بالنصارى، وغلب على بلنسية وأخذها من بني أبي عامر، وأخذ قرطبة من يد المعتمد بن عباد، وكان لهذه الصراعات أثر سلبي على زوال مملكته زمن حفيده القادر فيما بعد، حكم ما بين عامي ٤٣٥هـ و٤٦٧هـ حيث توفي سنة ٤٦٧هـ.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ق ٣/م ١/١٠٣-١٠٤، وابن الأبار: الحلة السيرة ٢/١٧١، وابن سعيد: المغرب ٢/٣٠٣، والمقري: النفح ١/٤٤١.
- ❖ سليمان بن محمد بن هود الجذامي، أمير سرقسطة، شارك في فتنة انهيار الخلافة، ويعد مؤسس دولة بني هود في سرقسطة سنة ٤٣١هـ، دخل في صراع مرير مع القشتاليين، وبني ذي النون، إلا أنه تمكن من الحفاظ على مملكته، وتقوية أركانها، غير أنه قام بتقسيم مملكته بين أبنائه، فتصارعوا فيما بينهم، وتمكن ابنه أحمد المقتدر من الاستيلاء على ممتلكات أخويه، وإعادة توحيد مملكة سرقسطة، توفي سليمان سنة ٤٣٨هـ.
- انظر ابن سعيد: المغرب ٢/٤٣٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢/١٧٠-١٧١، ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٢١.

- ٧٦- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٢٥٣-٢٥٥.
- ❖ أبو بكر محمد بن سليمان بن القصيرة الكلّاعي، كاتب من أهل إشبيلية، قلده المعتمد بن عباد رئاسة ديوانه، ورفعته إلى مرتبة الوزارة، وكان سفيره إلى ملوك الطوائف، وعهد إليه بالسفارة إلى يوسف بن تاشفين، يستصرخ به على النصارى بعد سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ، وقد ولاه ابن تاشفين ديوان رسائله في مراكش، بعد خلع ملوك الطوائف، وظل عليه زمن ابنه علي، حتى توفي ابن القصيرة سنة ٥٠٨هـ.
- انظر ابن خاقان: القلائد ١/٣٠٥-٣١٣، وابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٢٣٩، وابن سعيد: المغرب ٢/٣٥٠، والعماد: الخريدة ٣/٣٨٣.
- ٧٧- ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٧٨.
- ٧٨- ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٧٩-٢٨٠.
- ❖ الحَبَل: بمعنى العهد أو الذمة، وَحَبَلَ الصيْدَ حَبْلًا صاده بالشراك، أو شده بالحبال، الفيروز آبادي: القاموس ٣/٣٦٤ (حبل).
- ٧٩- ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٨١.
- ٨٠- ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٨٢.
- ٨١- ابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢/١٧٨.
- ٨٢- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٠، ابن عذاري: البيان المغرب ٤/٢٣٢، وعنان: دول الطوائف ١٠٠-١٠١، ٣٨١.
- ٨٣- ابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢/١٧١، وابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر... بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ٤/١٩٣.
- ٨٤- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٥٦، وانظر عنان: دول الطوائف ١٠٥-١٠٧.
- ❖ القادر، يحيى بن ذي النون، حفيد المأمون، تولى بعده حكم طليطلة سنة ٤٦٧هـ، إلا أنه كان حدثاً قليل الخبرة، ضعيف الرأي، فتأمر عليه جماعة من أهل طليطلة، على رأسهم الفقيه ابن المشاط، فثار عليه العامة في فتنة عارمة، اضطر على أثرها إلى الهرب من طليطلة إلى حصن وبْدَة، ثم إلى قُونْكة سنة ٤٧٢هـ، واستعان على أهل طليطلة بملك فشتاله الفونسو السادس، الذي حاصرها سبع سنين، ثم احتلها لنفسه، واتخذها عاصمة لمملكته، وأعان القادر على أخذ بلنسية، فسار إليها بحاشيته وكنوزه، فثار عليه القاضي ابن الجحاف، وقتله، واستولى على كنوزه، وقام ابن الجحاف بالأمر في بلنسية بعده سنة ٤٨٥هـ.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٢٧، ق٣/م١/١٠٣-١٠٤، وابن خلكان: وفيات الأعيان

- ١١٨/٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٣٠٤-٣٠٥، والمقري: النفع ١/٤٤١، ٤/٣٥٢-٣٥٤.
- ❖ الفقيه أبو بكر بن الحديدي، أحد أعوان المأمون بن ذي النون، كان يعتمد على رأيه في تصريف شؤون دولته، وكان ابن الحديدي مخلصاً له، فأوصى به حفيده القادر من بعده، غير أن القادر لم يأخذ بنصحه، وتريص له ابن المشاط الفقيه، أحد شيوخ الدسائس، الذين كشف أمرهم ابن الحديدي للمأمون، فأودعهم السجن، إلا أن القادر أفرج عنه، وقربه إليه، فاستدرج ابن الحديدي إلى قصر القادر، وقتله سنة ٤٧٢هـ، فثار أهل طليطلة على القادر، وأخرجوه عنها في فتنة عارمة.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ق٤/م/١٥٦، وعنان: دول الطوائف ١٠٥-١٠٧.
- ❖ الفقيه ابن المشاط من رؤساء مشيخة طليطلة، حاول إثارة فقهاء طليطلة وأهلها على المأمون بن ذي النون، فاكشف أمره الفقيه أبو بكر بن الحديدي، فزجه المأمون في عدد من المشيخة في مطبق حصن وبذه، وحذر حفيده القادر منهم، غير أنه أطلق سراحهم حين تولى الأمر بعد جده، فقتل ابن المشاط أبا بكر بن الحديدي، فثار فتنة عارمة في المدينة، هرب القادر على أثرها إلى قونكة ثم ضاع ملكه على أثرها.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ق٤/م/١٥٦.
- ٨٥- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م/١٥٠.
- ٨٦- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م/١٥٨، وانظر عنان: دول الطوائف ١٠٦.
- ❖ الوزير أبو بكر بن محمد بن مروان بن عبدالعزيز القرطبي، وزير كاتب محنك، وزر بعد أبيه للمظفر عبد الملك بن المنصور ببلنسية، واستقل بتدبير الأمر عن المظفر، وقام بأمر بلنسية، وأقره المأمون بن ذي النون على بلنسية بعد استيلاءه عليها سنة ٤٥٧هـ، ولما ثارت الفتنة على القادر بن ذي النون استقل بحكم بلنسية عنه، ودانت له بالطاعة، ثم قام بتزويج ابنته للمستعين أحمد بن هود، زمن حكم أبيه المؤتمن سنة ٤٧٧هـ. فكسب وده، وقوى شأنه، واستمر في الحكم عشر سنوات، وتوفي سنة ٤٧٨هـ.
- انظر ابن خاقان: القلائد ٢/٤٦٧-٤٧٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢/٢٠٢. والمقري: النفع ١/٦٤١، ٣/٢٨٩، ٤٥٨، ٤٤٢، ٤/٥٤.
- ❖ حصن وُدَّة (Huete) مدينة بالأندلس من أعمال شنت برية، وهي حصن على نهر وادي آنه (يانه) بغرب إقليش، تحيط به البساتين، وكانت من أملاك بني ذي النون، بنوا فيها مُطْبَقًا ليسجنوا فيه معارضيتهم.
- انظر ابن بسام: الذخيرة ق٤/م/١٥٦، ١٥٨، والحميري: الروض المعطار ٦٠٧.
- ❖ حصن قُونَكَة (Cuenca) مدينة من أعمال شنت برية شرقي الأندلس، تقع على بعد خمسين

كيلومتراً شرقي وبذة على نهر شقر.

انظر ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/٩٣، ياقوت: معجم البلدان ٤/٤١٥، والحميري: الروض المعطار ٦٠٢، وابن عبدالحق البغدادي: مراصد الاطلاع ٣/١١٣٤.

٨٧- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٥٨.

٨٨- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٥٦.

❖ بَطْلَيُْوس (Badajos) مدينة عظيمة بالأندلس، من أعمال ماردة، تقع على نهر آنه (يانه) غربي قرطبة، وقد بناها عبدالرحمن بن مروان الجليقي بأمر من الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط، واتخذها بنو الأفطس حاضرة لدولتهم، حتى انتزعها منهم المرابطون سنة ٤٨٣هـ.

انظر ياقوت: معجم البلدان ١/٤٤٧، والحميري: الروض المعطار ٩٣، وابن عبدالحق البغدادي: مراصد الاطلاع ١/٢٠٤.

٨٩- ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٢-٢٥٣، ٢٦٠، ٣٠٤.

٩٠- ابن بلقين، عبدالله بن بلقين الصنهاجي (ت بعد ٤٨٣هـ): التبيان.... تح ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥، ١٠١، وابن الكردبوس، عبدالمك بن قاسم التوزري (ت بعد ٥٧٥هـ): تاريخ الأندلس، تح أحمد مختار العبادي. مدريد، معهد الدراسات الاسلامية، ١٩٧١، ٨٩، وابن أبي زرع الفاسي، علي بن عبدالله (ت ٧٤١هـ): الأنيس المطرب، بروض القرطاس... تح كارل تورنبرج. أبسالة ١٨٤٣، ١٤٢-١٤٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ق٣، تح العبادي والكتاني. الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٦٤، ٢٣٩/٣، وعنان: دول الطوائف ٣٨٤-٣٨٧، ١٠٨-١٠٩.

❖ البُشْكَنْس: هم النصاري الأسبان الذين سكنوا الجزء الغربي من جبال البرانس، وكان مركزهم مدينة بنبلونة، التي أصبحت فيما بعد عاصمة نافار، وخضعت هذه المنطقة للحكم الاسلامي منذ الفتح وحتى سنة ١٨٢هـ، حيث تمرد أهلها على المسلمين، وانضموا لألفونسو الأول.

انظر الحميري: الروض لمعطار ٥٠ و Encyclopaedia of Islam Vol. 1, P. 1079

❖ الجَلَالِيَّة: النصاري الاسبان الذين سكنوا منطقة جَلِيْقِيَّة. شمال غرب الأندلس، وقد خضعت للحكم الاسلامي فترة قصيرة في العهد الأموي، ثم تمرد أهلها على المسلمين، والجلالقة أصحاب أجسام قوية.

انظر الحميري: الروض المعطار ٥٠ و Encyclopaedia of Islam Vol. 2, P. 541

٩١- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١/١٦٢، وانظر عنان: دول الطوائف ١٠٧.

- ٩٢- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٢، وانظر عنان: دول الطوائف ١٠٧.
- ❖ ضَرَحَ الشيء، دفعه وأبعده ناحية، أنظر الفيروز آبادي: القاموس ٢٤٥/١ (ضرح).
- ٩٣- ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٣٠٤.
- ٩٤- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٢.
- ٩٥- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٢.
- ٩٦- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٢، وانظر عنان: دول الطوائف ١٠٧.
- ٩٧- مجهول: الحلل الموشية ٤١، وعنان: دول الطوائف ١٠٨.
- ❖ المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن عباد اللخمي، أمير شاعر وأديب، من أشهر أمراء بني عباد في إشبيلية، تولى الحكم بعد والده المعتضد سنة ٤٦٤هـ، وأخذ قرطبة من بني جهور، وتقاسم مملكة طليطلة مع القشتاليين، ثم طمعوا في مملكته، فاستجد بيوسف بن تاشفين فغير إليه، وهزمهم في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ، ثم عاد المعتمد وغيره من ملوك الطوائف إلى محالفة الفونسو السادس ضد المرابطين، فخلعهم ابن تاشفين، واستولى على ملكهم، ونفى المعتمد إلى أغمات قرب مراکش، وظل فيها سجيناً حتى مات سنة ٤٨٤هـ.
- انظر ابن خاقان: القلائد ١/٥١-١٠٩، وابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٤١، وابن الآبار: الحلة السيرة ٢/٥٢، وابن خلكان: وفيات الأعيان: ٢١/٥-٣٩، والحميري: الروض المعطار ٨٤-٩٥، والمقري: النفع ١/٤٣٨-٤٤٠.
- ٩٨- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٢، وعنان: دول الطوائف ١٠٩-١١٠.
- ٩٩- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٤.
- ١٠٠- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٤.
- ١٠١- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٥.
- ١٠٢- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٧، ❖ شَشَنَدَ (أو شَشَنَدُو): وزير الفونسو السادس ملك قشتالة، وهو من النصارى المستعربين، أسر وهو صغير، وربى في بلاط إشبيلية، وظهر أيام المعتضد بن عباد، وسفر بينه وبين فرناندو ملك قشتالة، ثم نزح إلى جليقية، وخدم فرناندو، وولده الفونسو السادس من بعده، كان داهية بارعاً، انظر عنان: دول الطوائف ١١١.
- ١٠٣- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٩٥-٩٦. وانظر المقري: النفع ٢/٧٧.
- ❖ القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف التجيبي الباجي، فقيه مشهور، جمع بين الفقه



والكلام والخطابة والشعر والترسل، ولد سنة ٤٠٣هـ في بطليوس، ثم ارتحل إلى باجة، ١٠٣- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٩٥-٩٦. وانظر المقرئ: النفح ٧٧/٢.

❖ القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف التجيبي الباجي، فقيه مشهور، جمع بين الفقه والكلام والخطابة والشعر والترسل، ولد سنة ٤٠٣هـ في بطليوس، ثم ارتحل إلى باجة، ومنها ارتحل سنة ٤٢٦هـ إلى المشرق للحج وطلب العلم، فالتقى علماء مصر والشام والعراق والحجاز، وأخذ عنهم الفقه والحديث والكلام، وعاد إلى الأندلس سنة ٤٣٩هـ، فدرس في حواضرها، وعمل في القضاء، وسعى بإشارة من المتوكل بن الألفطس في الصلح بين ملوك الطوائف، فلم يصنع شيئاً، فقد كان يداخلهم ويمدحهم بشعره، ويقبل صلاتهم، ويترسل لهم، حتى كثرت فيه القالة، استدعاه المقتدر بن هود إلى سرقسطة، فاستقر عنده، وضع عدة كتب في الفقه والحديث والتفسير، توفي في ألمرية سنة ٤٧٤هـ.

انظر ابن خاقان: القلائد ٥٩٩/٣، وابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٩٤ وابن بشكوال: كتاب الصلة ١٩٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ١٤٢/٢ وابن سعيد: المغرب ٤٠٤/١، والمقرئ: النفح ٧٧-٦٧/٢.

١٠٤- المقرئ: النفح ٦٧/٢.

١٠٥- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٧.

١٠٦- Padre Mariana: Historia General de Espana, Madrid, 1855, Cop. 16.

R. Menedez Pidal: La Espana, Madrid, 1947, P.306.

عنان: دول الطوائف ١١١-١١٢ (والترجمة عنه).

١٠٧- عنان: دول الطوائف ١١٢، ٣٨٢.

١٠٨- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٧.

١٠٩- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٨.

١١٠- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٨.

١١١- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٧، وابن خلدون: العبر ٢١٨/٤، وعنان: دول الطوائف ١١٣.

١١٢- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٨.

١١٣- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١/١٦٨. وعنان: دول الطوائف ٣٨٣.

Pidal: La Espana Del Cid, pp.307

١١٤- ابن بسام: الذخيرة ق٣/م١٦٨.

١١٥- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١٦٨. وانظر المقرئ: النفح ٤/٤٤٧.

❖ الشيخ أبو عبدالله بن عيسى المغامي، إمام المسجد الجامع في طليطلة زمن القادر بن ذي النون، وكان من شروط تسليم طليطلة، حين استولى عليها الفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ أن يبقى المسجد الجامع بأيدي المسلمين، غير أن النصارى نكثوا عهدهم وقاموا بتحويله إلى كنيسة، أصبحت مركز اسقيتهم، وكان الشيخ المغامي آخر مسلم صلى في المسجد، وكان أحد تلاميذه يتلو القرآن بين يديه، والنصارى يحطمون المنبر والمحراب، ثم بكى وانتحب، وأخرجوه منه في ١٥ شعبان سنة ٤٧٨هـ. انظر ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١٦٨، والمقرئ: النفح ٤/٤٤٧.

١١٦- ابن خلدون: العبر ٤/٢١٨-٢٢١.

١١٧- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١٦٧.

١١٨- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١٦٧. وانظر المقرئ: النفح ٤/٤٤٧.

١١٩- ابن الخطيب: أعمال الاعلام ٢/١٨١، وانظر ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي (ت٤٥٦هـ): الرد على ابن النفريلة اليهودي ورسائل أخرى، تح إحسان عباس. القاهرة، مكتبة العروبة، ١٩٦٠، ١٧٣-١٧٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٥.

١٢٠- ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٣٠٤-٣٠٥.

❖ القاضي أبو أحمد جعفر بن عبدالله بن جحّاف المغافري، قاضي مدينة بلنسية، حالف المرابطين ضد القادر بن ذي النون، وحليفه السيد الكمبيطور، فثار على القادر وقتله سنة ٤٨٥هـ، واستولى على كنوزه، وأصبح رئيساً لجماعة المدينة، غير أن أصحاب القادر استجدوا بالكمبيطور، فحاصر المدينة حتى اشتد الأمر على أهلها، وفشل المرابطون في إغاثتهم، ففاوضه ابن الجحاف على تسليمها سنة ٤٨٧هـ، ولما دخلها الكمبيطور غدر بأهل المدينة، ونكل بهم، وقبض على ابن الجحاف وأهله، ونهب أمواله، وعذبه، ثم أمر بإحراقه حياً، لحقه عليه، بسبب طول مقاومة بلنسية له، واستشهد سنة ٤٨٧هـ..

انظر ابن بسام: الذخيرة ق٣/م٩٨-٩٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٣٠٤-٣٠٦، والمقرئ: النفح ٤/٤٥٥.

١٢١- ابن بسام: الذخيرة ق٤/م١٦٤-١٦٩. الحميري: الروض المعطار ٣٩٥، وابن الخطيب: أعمال الاعلام ٢/١٨١، والمقرئ: النفح ٤/٣٥٢-٣٥٣.

١٢٢- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م٢٤٩.

- ١٢٢- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٢٥٤.
- ١٢٤- ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي (ت٤٥٦هـ): رسائل ابن حزم، تح إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٧٦/٣.
- ١٢٥- مجهول: الحلل الموشية ٤١.
- ١٢٦- ابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢/٢٢٤.
- ١٢٧- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٢٥٤-٢٥٥.
- ١٢٨- ابن بسام: الذخيرة ق٢/م١/٢٣٦.
- ١٢٩- ابن عذاري: البيان المغرب ٤/٥٢.
- ❖ علي بن يوسف بن تاشفين، أمير المرابطين الثاني، ولد سنة ٤٧٧هـ، وتولى الحكم بعد أبيه سنة ٥٠٠هـ، وسار على نهجه، فعبر إلى الأندلس سنة ٥٠١هـ لجهاد النصارى، ونجح المرابطون في عهده من استعادة أقليمش، وشتبرية، وطلبيرة، كما استعادوا جزائر البليار سنة ٥٠٩هـ، وأجلى نصارى غرناطة إلى مراكش، بسبب خيانتهم، وفي عهده ظهرت حركة الموحدين في المغرب، توفي سنة ٥٣٧هـ، وخلفه ابنه تاشفين، وكان ضعيفاً.
- انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/١٢٥. ومجهول: الحلل الموشية ٦٠-٦٤، وابن أبي زرع: روض القرطاس ١٠١-١٠٥، وعنان: محمد عبدالله، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤، ١/٥٧-١٠٤.
- ١٣٠- الطرايسي: الأصوات النضالية ١٣٤-١٣٨.

## ثبت المصادر والمراجع

- ١- ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت٦٥٨هـ): الحلة السيرة، تح حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣.
- ٢- ابن بسام، علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس. بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨-١٩٧٩.
- ٣- ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك الخزرجي (ت٥٧٨هـ): كتاب الصلة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.
- ٤- ابن بلقين: عبدالله بن بلقين الصنهاجي (ت٤٨٣هـ): التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تح ليفي بروفنسال، مصر، دار المعارف، ١٩٥٥.
- ٥- ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي (ت٤٥٦هـ): الرد على ابن النفريلة اليهودي ورسائل أخرى، تح إحسان عباس، القاهرة، مكتبة العروبة، ١٩٦٠.
- ٦- للمؤلف نفسه: رسائل ابن حزم الأندلسي، تح إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.
- ٧- الحميري: محمد بن عبد المنعم (ت٧٢٧هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥.
- ٨- ابن خاقان، الفتح بن محمد القيسي (ت٥٢٩هـ): قلائد العقيان، تح حسين خريوش. الزرقاء دار المنار، ١٩٨٩.
- ٩- ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبدالله (ت٧٧٥هـ): كتاب أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلال، من ملوك الاسلام. ق٢ تح ليفي بروفنسال. بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦، وق٢ تح العبادي والكتاني. الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٦٤.
- ١٠- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر... بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.
- ١١- ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٨.
- ١٢- ابن أبي زرع، علي بن عبدالله الفاسي (ت٧٤١هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تح كارل نورنبرج، أسبالة، ١٨٤٣.
- ١٣- ابن سعيد، علي بن موسى المغربي (ت٦٨٥هـ): المغرب في حُلَى المغرب، تح شوقي ضيف، مصر، دار المعارف، ١٩٥٥.

- ١٤- صفوت، أحمد زكي، جمهرة خطب العرب، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت.
- ١٥- ضيف: شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٩.
- ١٦- الطرايسي، أحمد إعراب: "الأصوات النضالية والإنهزامية في الشعر الأندلسي"، عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويتية، ١٩٨١، م١٢، ع١، ص ص ١٢١-١٧٠.
- ١٧- عباس، إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٤.
- ١٨- ابن عبدالحق البغدادي، عبدالمؤمن (ت٧٣٩هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، تح علي البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥.
- ١٩- ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي (ت٦٩٥هـ): البيان المغرب، في أخبار أهل الأندلس والمغرب، تح ليفي بروفنسال وآخرين، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٠.
- ٢٠- العماد الأصفهاني، محمد بن محمد الكاتب (ت٥٩٧هـ): خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، تح آذرتاش آذرنوش وآخرين. تونس، الدار التونسية، ١٩٦٦-١٩٧٢.
- ٢١- عنان، محمد عبدالله: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.
- ٢٢- عنان، محمد عبدالله عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٤.
- ٢٣- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ): القاموس المحيط، مصر، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٢.
- ٢٤- القطامي، عمير بن شبيب: ديوان القطامي، تح إبراهيم السامرائي ورفيقه، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٠.
- ٢٥- القيسي، فايز عبدالنبي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري. عمان، دار البشير، ١٩٨٩.
- ٢٦- ابن الكردبوس، عبدالمملك بن قاسم التوزري (ت بعد ٥٧٥هـ): تاريخ الأندلس، تح أحمد مختار العبادي. مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧١.
- ٢٧- مفتاح، محمد: "مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي"، عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويتية، ١٩٨١، م٢٢، ع١، ص ص ١٧١-٢٠٠.

- ٢٨- المقري: أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس. بيروت، دار صادر، ١٩٦٨.
- ٢٩- ياقوت: شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩.
- ٣٠- مؤلف مجهول (من ق ٨هـ): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح سهيل زكار ورفيقه، الدار البيضاء، دار الإرشاد الحديثة، ١٩٧٩.
- ٣١- Is. de Las Cagigas: Los Mozarabes. Madrid, 1949.
- ٣٢- Padre Mariana: Historia General de Espana. Madrid, 1855.
- ٣٣- R. Menendez Pidal: La Espana del Cid, Madrid, 1947.
- ٣٤- Encyclopaedia of Islam, New edition, Vol. 1-., Leiden, 1960-